جامعة الانبار

كلية التربية للعلوم الإنسانية

القسم العلمي: علوم القران والتربية الاسلامية

المرحلة الدراسية: الثالثة – كورس ثاني

المادة: الاعجاز القراني

محاضرات مادة: الاعجاز القرآني

المحاضرة الاولى – الاعجاز القرآني المرحلة الثالثة – ف2

عنوان المحاضرة – مفهوم المعجزة والاعجاز القراني .

.The title of the lecture - The concept of miracle and the Quranic miracle

تمهيد: إن الذي يجرأ على البحث في موضوع الاعجاز في القرآن والسنة النبوية كالذي غاص في أعماق المحيط، كلما أعتقد أنه وصل إلى قعره صُدم بأنّه في نقطة البداية، أو كالسابح في الفضاء كلما رمى طرفه عاد خاسئا و هو حسير . ولهذا قال العلامة الطاهر بن عاشور: "لم أر غرضا تناضلت له سهام الافهام. ولا غاية تسابقت إليها جياد الهمم فرجعت دونها حسرى .واقتنعت بما بلغته من صُبابةٍ نزرا. مثل الخوض في وجوه إعجاز القرآن"، غير أنه لم يزل شغل الكثير من الدارسين، كل حسب اختصاصه والجميع عقد العزم لولوج هذا الباب لنيل أحد الأجرين. وشاء الله تعالى أن يخصّنا بهذا السهم. لعلّنا نظفر بشيء من ذلك. وقد جاء البحث في محورين هما:

المحور الاول: مفهوم الاعجاز

المحور الثاني :منهجية الدراسة في الاعجاز

<u>أولا: مفهوم الاعجاز :</u>

لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة مصطلح الاعجاز أو لفظة معجزة إلاّ في وقت متأخر بعض الشيء، في أواخر القرن الثاني الهجري وبداية القرن الثالث. غير أن القرآن الكريم استعمل مجموعة من الالفاظ ليست مرادفة (للفظة معجزة أو إعجاز)وإنما تدل على جزء من معناها الذي يشمل أكثر من معنى جزئيّ واحد. وهذا الجزء يقابل كلمة دليل أو حجّة .

الآية: يقول تعالى﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ**﴾.**الانعام**109

البرهان:﴿ **فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ**﴾.**القصص** 32

السلطان:قال عزّ وجل: ﴿**تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾ابراهيم**10**.

البيّنة: قال تبارك وتعالى:﴿**قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ ءَايَةً**﴾ **الاعراف73**

<u>التعريف اللغوي</u>: مادة(ع–ج–ز) .الشائع في الاستعمال من هذه المادة أصلان ،الاصل الاول (عجز) والعجز: مؤخَّر الشيء ،والعجز الضعف ، قال الراغب الاصفهاني: أصل العجز التأخر عن الشيء وحصوله عند عجز الامر، أي مؤخَّره، وصار في التعارف اسما للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة .

و يقال :عجز يعجز عجزا فهو عاجز؛ أي ضعيف. ويقال :أعجزني فلان، إذا عجزت عن طلبه وادراكه وقال ابن منظور: العجز نقيض الحزم."وقد وردت مشتقات هذه المادة للدلالة على عدد من المعاني القريبة أو المغايرة قليلا لذلك في ستة وعشرين موضعا من القرآن الكريم بألفاظ(أعجز)، و(معجزين)،و(عجوز)،و(أعجاز)،وتصريفاتها مثل قوله تعالى:

﴿**قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ**﴾**المائدة31.**

﴿**إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ**﴾**الانعام134.**

﴿**وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ**﴾**الانفال59.**

﴿**قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ**﴾**هود72. "**

مادة(ج–ز–ع) الاصل الثاني،والجزع ما يحس به المرء من القلق والاضطراب وضيق الصدر أو عدم الصبر.

وهو قطع امتداد السكون وحالة الطمأنينة والصبر حتى يظهر منه ما يخالف السكون وينقطع حاله الممتد تقديرا، وقد جاء هذا اللفظ في القرآن الكريم مرتين، جاء بصيغة الفعل وذلك في قوله تعالى: ﴿**سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ**﴾ابراهيم 21.و جاء بصيغة الاسم قال تعالى: ﴿**إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً**﴾**المعارج20** .وإذا عقدنا عليه وعلى تقاليبه معنى ،وإن تباعد شيء من ذلك عنه ردّ بلُطف الصنعة والتأويل حصلنا على معنى الضعف المصحوب بالانفعال النفسي والاضطراب .

ولما كان مفهوم الإعجاز لا ينفك عن المعجزة كان لازما علينا تعريفها لغة واصطلاحا حتى ينجلي الابهام وينكشف اللّثام ويحصل المرام.

تعريف المعجزة لغة: مشتقة من الفعل الرباعي المهموز أعجز، ومصدره إعجاز وهي اسم فاعل لحقته (الهاء)للمبالغة في الخبر كما وقعت المبالغة بالهاء في قولهم علامة وفهامة ونسابة، وقيل: الهاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية نحو ذبيحة حقيقة، نطيحة ،فلفظة حقيقة أصله وصف. وهناك نكتة أخرى فحروفها كلها مجهورة (تصحبها ذبذبة الوترين) وشديدة (انفجارية) ماعدا (الزاي)فهي رخوة ولكن لها صفير ومخارجها من وسط الحلق(ع) وسط اللسان وما يحاذيه من الحنك الاعلى(ج)،و بين طرف اللسان وفوق الثنايا(ز).وكأنّ هذه المعجزة شديدة الوقع كشدّة صفة حروفها تتغلغل في أعماق النفس ابتداء ثم تتصعد لتصيب صاحبها بغصة لأنه أضعف ما يكون على مجاراتها .

تعريف المعجزة اصطلاحا: يُعرّف السيوطي المعجزة بأنّها:(أمر خارق للعادة مقرونٌ بالتحدِّي سالم من المعارضة) ،ونفس التعريف ذهب إليه ابن خلدون حيث يقول:(إن الخوارق(المعجزات)هي أفعال يعجز البشر عن مثلها، فسميت بذلك معجزة، وليست من جنس مقدور العباد، وإنما تقع في غير محل قدرتهم) .ويقول القاضي عبد الجبار الهمذاني (ت215هـ):" معنى قولنا في القرآن أنه معجز ؛أنه يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله، في القدر الذي اختص به" ويقول الشريف الجرجاني" الإعجاز في الكلام هو أن يؤدي المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق. كما قال أيضا: حدّ الاعجاز هو أن يرتقي الكلام في بلاغته إلى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضتهم".

شروط المعجزة: يذكر القرطبي في كتابه(الجامع لأحكام القرآن)خمسة شروط لا يصح من دونها لحادث أن يسمى معجزة وهي:

1-الحادث ينبغي أن يكون ممّا لا يستطيعه إلا الله.

2-يجب أن يخرق قوانين الطبيعة.

3-ينبغي أن ينبئ عنه الحكيم قبل أن يقع.

4-يجب أن يكون الحادث الواقع موافقا لما قيل .

5-ألاّ يكون في استطاعة أحد أن يجري مثل هذا الامر.

وبالرجوع إلى مصطلح(الاعجاز)فُهم منه أنّه لفظة مشتقة من إثبات(العجز) وهو الضعف وعدم القدرة" أمّا(إعجاز القرآن) فهو مركب إضافي ،وقد عرفوه بقولهم إظهار صدق النبي) (T في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن

معارضته في معجزته الخالدة –وهي القرآن –وعجز الاجيال بعدهم ".أمّا الاستاذ محمد علي الصابوني فيعرفه بقوله:" إثبات عجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الاتيان بمثله، وليس المقصود من إعجاز القرآن هو تعجيز البشر لذات التعجيز أي تعريفهم بعجزهم عن الاتيان بمثل القرآن، فإنّ ذلك معلوم لدى كل عاقل، وإنما الغرض هو إظهار أنّ هذا الكتاب حق، وأنّ الرسول الذي جاء به رسول صدق، وهكذا سائر الأنبياء الكرام".

أما الاستاذ الرافعي فيرى أن الاعجاز شيئان: **أحدهما:** ضعف القدرة الانسانية في محاولة المعجزة ،مزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته. **وثانيهما:** استمرار هذا الضعف على تراخي الزمني وتقدمه .

الفرق بين المعجزة والكرامة والسحر:

لقد سبق وأن عرفنا المعجزة ،والفرق بينها وبين **الكرامة** ؛أنّ هذه الاخيرة هي فعل الله عزّ وجلّ يكرم به منْ يشاء مِن عباده مثل ما أكرم به سبحانه السيدة مريم البتول رضي الله عنها ،قال تعالى: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾**آل عمران37**،ومن هذا القبيل إكرام فتية الكهف وكثير من الصالحين ومنْ نال هذه الحضوة ليس مكلف بتبليغ الرسالة.أما **السحر** فهو عمل مشين مُحرم شرعا فليس فيه الاّ الأذى والشر والشحناء وهو قابل للتّعلُم،وصاحبه ملعون وهو من شرار الخلق قال عزّ من قائل: ﴿**وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**﴾ **البقرة102.**

أنواع المعجزات :

لقد اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى أن تكون معجزاته منسجمة مع أحوال البشر الذين ظهرت فيهم،بما يتناسب مع فروقهم الفردية والجماعية وزمانهم ومكانهم،إذْ الغاية من المعجزة تأييد الرسل وقيام الدليل على صحة دعواهم،ولهذا وجدنا العلماء يقسمون المعجزة إلى قسمين:

1)المعجزة الحسية :وهي التي تظهر في شكلها المادي المحسوس المشاهد للعيان تعتمد أساسا على خرق ما اعتاد الناس عليه وألفوه،وهي تحيا وتفنى مع صاحبها،وحجة في حق من شهدها ،كما تتناسب مع ما اشتهر ونبغ فيه أقوام المرسلين حتى يكون التحدي دامغا ومثبتا لقدرة الله سبحانه وتعالى .وهذه بعض النماذج عليها.

***معجزة ابراهيم عليه السلام**:القاء ابراهيم عليه السلام في النار انتقاما منه لالهتهم وعلى مشهد منها حتى تباركه ويكون وقعه رهيبا ،وقدّر الله تعالى أن يقذف الخليل عليه السلام في النار والموكب الضال يتباشر بهلاكه ،لكن صار الامر الى ما لا يسرهم قال تعالى:﴿ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾**الانبياء 69.**

***معجزة موسى عليه السلام**: لقد اشتهر قوم موسى بالسحر ونبغوا فيه، فكانت معجزة سيدنا موسى عليه السلام من جنس ما عرف قومه(العصا، اليد البيضاء) قال جلّ من قائل: ﴿**فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ**﴾**الشعراء 32-33.**

وتحدّاه قومه وجعلوا يوم الزينة موعدا لذلك، فلما رأى السّحرة ما آلت إليه العصا كانوا أقدر الناس على فهمها فخروا سجدا قال تعالى:﴿ **فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾**الشعراء 45-46-47**

***معجزة عيسى عليه السلام**: اشتهر قوم نبي الله المسيح عيسى عليه السلام في ميدان الطب ولقد برعوا فيه فكانت المعجزة مناسبة لهذا،فأبرأ الاكمه والابرص وأحيا الموتى بإذن الله.كما يقول سبحانه على لسان عيسى:﴿ **أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإ<**.

منهجية الدراسة في الاعجاز:

ليس المراد من هذا المحور الوقوف على مناهج اللغة كالمنهج الوصفي، والتاريخي الفيلولوجي، والتحليلي والمقارن ،والتقابلي وإنّماالغرض هو الوقوف على طريقة المؤلفين في تحديد وجوه الاعجاز لانّ الاعجاز في ذاته لا خلاف فيه ،والسؤال الذي يطرح نفسه؛ لماذا لم يتكلم في موضوع الاعجاز أحد من علماء السلف كابن عباس أو غيره من العلماء؟، ولعل الجواب هو تهيبهم وحرصهم مِن أن يتكلموا بغير المراد منه، وصونا للقرآن أن يكون غرضا للآراء والأهواء.

1-وجوه الاعجاز عند القدماء : لقد بدأت الاشارات الاولى على يد أبي عبيدة(110-209ه)في كتابه (مجاز القرآن)والفراء (ت207ه)في كتابه(معاني القرآن) ولكنّها كانت دراسة لغوية بيانية أكثر منها في الاعجاز غير أنّه حدث شبه اجماع العلماء على أنّ أول من تكلّم في الاعجاز هو إبراهيم بن سيّار النّظام المعتزلي (ت224ه) شيخ الجاحظ وقال بالصَّرفة(أي بأنَّ الله أفقدهم القدرة على المعارضة أو سلبهم العلوم التي يمكن أن تعينهم على نظم كلام مضارع للقرآن ولولا ذلك لكان في مقدورهم الاتيان بمثله) وقد قال بهذا الرأي بعض من علماء المعتزلة منهم واصل بن عطاء البصري (ت131ه)،والجاحظ والرماني وابن سنان الخفاجي (ت466ه) وبعض علماء السنة منهم الامام الماوردي البصري الشافعي(ت450ه) الجويني الشافعي (ت478ه)والغزالي الطوسي الشافعي (ت505ه) والرازي الشافعي (ت606ه) وشمس الدين الاصبهاني الشافعي (ت749ه) والفقيه أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (ت977ه) وابن حزم الظاهري(ت456ه) وابراهيم الانصاري المعروف بابن سراقة المالكي (ت662ه) وابن جزي الكلبي الغرناطي المالكي (ت749ه) وشمس الدين بن سليمان التركي المعروف بابن كمال باشا الحنفي (ت 940ه)أمّا علماء الشيعة فمنهم الشريف المرتضي الكاضمي الشيعي (ت436ه)و نصر الدين الطوسي الشيعي (ت672ه) وتتلخص وجهات نظرهم في ثلاثة اتجاهات هي :

***ذهبوا إلى أن نظم القرآن ليس معجزا وإنما الصرفة هي المعجزة.وهما فريقان :الاول يرى أن الله عزّوجلّ سلبهم القدرة على المعارضة.الثاني:أن الله تعالى صرف قلوبهم وهممهم مع وجود جميع الامكانات لديهم للمعارضة.**

***وهؤلاء يعتقدون أنّ نظم القرآن هوالمعجز الاعظم ،ولكنه ليس الوجه الوحيد للإعجاز ومنها الصرفة.**

*** وقسم ذهب إلى عدد من وجوه البيان والاسلوب والمعاني ،وقالوا أنّ الصرفة وجه ضعيف ولكن لا حرج من القول به على سبيل التنَزُّلِ في الجدل.**

وقد أثبت العلماء المخلصون بالحجة والبرهان خطأ هذا الرأي وخروجه عن الجادة[xix].نذكر منهم الخطابي والباقلاني ،والقاضي عبد الجبار (ت415ه) ومنهم الجاحظ رغم أنّه أحد القائلين بها ،حيث ردّ على شيخه قائلا" فكتبت لك كتابا أجهدت فيه نفسي، وبلغت أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على الطعان، فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحشوي، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام، ولمن نجم بعد النظام، ممن يزعم أن القرآن حق ،وليس تأليف بحجة، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة"[xx].و الشيء الايجابي في فكرة الصَّرفة أنّها استثارت العقول والوجدان ودفعت بالعلماء إلى البحث والتنقيب في وجوه الإعجاز ،فاهتدوا إلى بيان أسرار البلاغة في كتاب الله العزيز، فانقلب السحر على الساحر وكان في ثنايا الباطل الحق الابلج، وكما قيل في المثل "رُبَّ ضارة نافعة". وخير ما يرد به على هؤلاء قول الحق تبارك وتعالى:﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾الانعام25.

- **الجاحظ(ت255ه) فألّف و درس موضوع الاعجاز في كتاب مستقل(نظم القرآن) لم يصل الينا، وهو يرى أن الاعجاز كائن في نظمه وتأليفه وانتقد شيخه ،و الصَّرفة عنده ضرب من التدبير الإلهي، والعناية الربانية ،جاءت لمصلحة المسلمين[xxi] ،وبهذا يكون قد مهد الطريق أمام الخطابي و عبد القاهر الجرجاني في بناء نظرية النظم.**

- **ابراهيم الخطابي(ت388ه) ألف رسالته(بيان إعجاز القرآن) وملخص رأيه" واعلم أنّ القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الالفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمنا أصح المعاني " [xxii] كما التفت إلى الاثر الذي يتركه سماع القرآن الكريم في النفس ،وجعله أحد وجوه الاعجاز. ويلاحظ على الخطابي أنه رفض القول بالصَّرفة، و كذا ما يتضمنه القرآن من الأخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان .**

- **علي بن عيسى الرماني(ت386ه) ذكر في رسالته(النّكت في إعجاز القرآن) سبع أوجه للإعجاز هي: * ترك المعارضة مع تــوفر الدواعي وشدة الحاجة.**

***التحدي للكافة.**

*الصَّرفة وهي عنده على وجهين،" منع داخلي ذاتي كائن في تركيب كل الانسان ،ومنع خارجي بفعل الله تعالى حيث صرفهم عن المعارضة وإن لم يكن في مقدورهم"[xxiii].

*البلاغة(أعلى -وسطى- أدنى)

*الاخبار الصادقة المستقبلية.

*نقض العادة.

*وقياسه بكل معجزة. واختار البلاغة وأسهب في شرحها وجعلها ثلاث طبقات ،العليا هي بلاغة القرآن، ثم قسم البلاغة الى عشرة أقسام. والمأخذ الذي أخذه العلماء على الرّماني هو جعله الصَّرفة أحد وجوه الاعجاز؛ لانّ هذا يتناقض مع الوجه البلاغي الذي اعتمده.

- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني(ت403ه) متكلم أشعري، وفي كتابه(إعجاز القرآن) يذكر ثلاثة أوجه كالاتي:

*الاخبار عن الغيوب. *قصص الاولين وأخبار الماضين.

*أنّه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة الى الحد الذى يُعلم عجز الخلق عنه"[xxiv]. ويخلص إلى أنّ البديع(كلّ المباحث والفنون البلاغية)ليست من وجوه الاعجاز ،وأنه أمر مختص بالقرآن ولا يوجد في كلام البشر.

ولقد ظل دَيدَان العلماء في القرون التسعة الاولى على نفس الطرح ،وإن كان منهم من يعدد وجوه الاعجاز إلى عشرة كما فعل القرطبي(ت648ه)،وإلى اثني عشر وجها عند الزركشي(ت794ه) وقد لخص جلال الدين السيوطي(ت911ه)جهود من سبقه في كتابيه (الاتقان في علوم القرآن) و(معترك الاقرن في إعجاز القرآن) ذكر أنّ بعض العلماء أنهى وجوه الاعجاز إلى ثمانين"[xxv] وقد رأى العلامة أنّه لا نهاية لوجوه الاعجاز أخذا برأي السّكاكي في المفتاح.

2- وجوه الاعجاز عند المحدثين : لقد عرف القرن الرابع عشر الهجري –العشرون ميلادي-حركة بحث في موضوع الاعجاز وإبراز وجوهه وألفوا فيه أسفارا قيّمة وكان الدافع الرد على تلك الهجمة الشرسة التي قادها المستشرقون وما يحملونه من أفكار وضعية متجلية في مذاهب اجتماعية واقتصادية ورأسمالية واشتراكية مشككة في الدور الايجابي للدين ،بل تلفيق التهم والشبهات للقرآن العظيم ولهذا تشكلت عندهم مجموعة من الاتجاهات منها:

الاتجاه الاول :أصحاب النزعة العلمية: لقد أهتم هؤلاء بوجوه الاعجاز من الناحية العلمية ،وقد كان لهذه النزعة جذور في تاريخ الفكر الاسلامي عند أبو حامد الغزالي والقاضي عياض، وابن رشد والامام فخر الدين الرازي ولكنها اشتدت في هذه الفترة وهي محاولة للتوفيق بين القرآن والعلم ،غير أن هناك منْ بالغ لحدِّ الاسراف وتحميل النص ما لا يحمله كطنطاوي جوهري في كتابيه(تفسير الجواهر-والقرآن والعلوم العصرية) ومنهم أيضا مهدي الاستامبولي(دين الغد: معجزات القرآن الكريم في العلم والسياسة الاجتماع). وفرقة ثانية التزمت الاعتدال في الطرح ولم يستشهدوا الا بالمسلم به من المقررات العلمية المتطابقة مع النصوص القرآني كالشيخ الامام محمد عبده –رحمه الله-والشيخ محمد رشيد رضا (تفسير المنار)وكعلي فكري(القرآن ينبوع العلوم والعرفان) وكالشيخ متولي الشعراوي (معجزة القرآن) بل هناك من المستشرقين منْ لزموا الاعتدال(موريس بوكاي)في كتابه(دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة).

الاتجاه الثاني :هناك من العلماء من اختار حصر وجوه الاعجاز في عناوين رئيسية تنضوي تحتها معظم تلك الوجوه ،فجعلوها ثلاثة أقسام على النحو التالي:

"*الاعجاز اللغوي (البياني).وهو الذي وقع من جهته التحدي بالقرآن جملة وتفصيلا.

*الاعجاز العلمي.

*الاعجاز التشريعي التهذيبي الاجتماعي"[xxvi].

الاتجاه الثالث أصحاب النزعة الادبية: يقصر الاعجاز على الجانب البياني من القرآن لأنه الوجه الذي يبرز فيه التحدي أما ما فيه من حقائق علمية وأخبار الامم السابقة وكل الغيبيات هي دلائل نبوة المصطفى وأنّ هذا الكتاب هو من عند الله عزّ وجلّ ،نذكر من هؤلاء مصطفى صادق الرافعي في كتابه(إعجاز القرآن) حيث يركّز على إعجاز القرآن بموسيقية آياته، والحس الروحي الذي يبعثه في نفس قارئه، وأمين الخولي في كثير من أعماله(البلاغة وعلم النفس-بحث البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها-التفسير معالم حياته ومنهجه اليوم) وهو ينتقد التفسير العلمي، وكذلك فعل الشيخ محمود شلتوت شيخ الازهر الاسبق –رحمه الله- ونعتقد أن موقفهم هذا المتشدد من أجل سدّ الباب أمام الغلاة، ونذكر محمد عبد الله الدراز في كتابه(النبأ العظيم) حيث يقول" لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات فلعمري أنه في ترتيب آيه على هذا الوجه، لهو معجزة المعجزات"[xxvii] والعالم الشهيد سيد قطب حيث يقول:" إن إعجاز القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله، وهو عجز كذلك عن إبداع منهج كمنهجه يحيط بما يحيط به"[xxviii] ونذكر عائشة عبد الرحمان في كتابها (الاعجاز البياني لقرآن ومسائل ابن الازرق) وهي تلخص قولها " وقصارى ما اطمأننت إليه في هذه المحاولة لفهم إعجاز القرآن الكريم، هو أنه ما من لفظ فيه أو حرف يمكن أن يقوم مقامه غيره ،بل ما من حركة أو نبرة لا تأخذ مكانها من ذلك البيان المعجز"[xxix].

الاتجاه الرابع :وهذا الوجهة ترى أن الاعجاز كامن في المعان السامية للقرآن وتشريعه الحكيم والقيم الحضارية التي ينطوي عليها منهجه ،فالقرآن معجزة لما في رسالته من تعليمات عليا، وغايات نبيلة، وأغراض شريفة، وأهداف سامية. ومنْ قال بهذا الرأي يتساءل لو كان إعجاز القرآن في فصاحته وبلاغته فحسب ؛كيف آمن به مِن غير العرب؟[xxx]

خاتمة: وكخلاصة لهذا البحث نختم بها فنقول إنّ الإعجاز هو ترجمة حقيقية لسمة القرآن الدائمة ،ومن إعجازه أنّ الحديث عنه لا ينتهي، ورغم ما كُتب فيه قديما وحديثا ،سواء كانت جهود فردية أو جماعية (مؤسسات)فإنهم لم يصلوا فيه إلى ساحل .ولهذا وجدنا الدكتور فاضل السامرائي يقول: " إنّ أمر القرآن عجيب. يراه الاديب معجزا، ويراه اللغوي معجزا، ويراه أرباب القانون والتشريع معجزا، ويراه علماء الاقتصاد معجزا، ويراه المرَبُّون معجزا، ويراه علماء النفس والمعنيون بالدراسات النفسية معجزا، ويراه علماء الاجتماع معجزا، ويراه المصلحون معجزا، ويراه كل راسخ في علمه معجزا"[xxxi].بل وجدنا الدكتور أحمد رحماني في كتابه (نظريات الإعجاز القرآني) يطلق على وجوه الإعجاز مصطلح نظرية ويدعو إلى مفهوم تضافر أوجه الإعجاز من أجل الوصول إلى تكامل في فهم النص القرآني مستثمرة بذلك كل الخبرات والمواهب والقوانين العلمية في إطار نظرية المعرفة الاسلامية.

وصدق الله تعالى القائل في محكم تنزيله: ﴿ ألم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) ﴾ البقرة.

عنوان المحاضرة – التحدي في القرآن

Lecture Title – Challenge in the Qur'an

معنى التحدي من حيث اللغة: التحدّي في اللغة يعني المباراة والمبارزة.

من حيث الاصطلاح:

التحدي اصطلاحاً يتصل اتصالاً وثيقاً بالمعنى اللغوي فهو طلب الإتيان بالمثل على سبيل المنازعة والغلبة ويتحدد المثل تبعا لما يتحدى به، وايضا يعبُر عن إنذار شخص بفعل شيء مع التّلميح إلى عدم قدرته عليه. وأمّا التحدي في القرآن فهو طلب لإتيان بمثله حيث يتحدى الله عز وجل الجميع على أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

التحدي بالقرآن :

القرآن هو الكتاب الوحيد الذي ينشر تحديه بين كلماته وهو يتحدى المشركين، الذين لم يؤمنوا برسالة النبي محمد ويزعمون بأنّ القرآن هو كتاب من افتراءه، بأن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين. لقد وقع التحدي بالقرآن الكريم بطريقة التدرج فتحدّى القرآن أولاً بالإتيان بمثله وذلك في قوله:

إن تحدي القرآن كان أكثر من آية ، وفي أكثر من وقت واحد ، وفي أكثر من مكان كذلك ، لقد تعددت آيات التحديث ، وتعددت مراحله كذلك ، وفيما يلي بيان ذلك:

أولا : تحدا أن يأتوا بمثل القرآن من غير تعيين قدر معين ، قال تعالى} : فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ] {الطور : 34[

ثانيا : ولما عجزوا أن يأتوا بمثله أرخى لهم العنان مرة أخرى ، قال تعالى:

}أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (13) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ] { هود : 13، 14.[

ثالثا : فلما عجزوا لم يستطيعوا ، أرخى لهم العنان ، وخفف عليهم المؤنة فاكتفى منهم بسورة واحدة ، قال تعالى } :أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] { يونس : 38[

رابعا : ولكن القوم يراوحوا مكانهم ، فتحداهم وكانت المرة الأخيرة أن يأتوا بسورة تشبه القرآن ، ولو من وجه من الوجوه ، فقال سبحانه } : وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ] { البقرة : 23 ، 24 .]

وإذا أردنا دراسة هذه المراحل لنرى ما بينها من وجوه الاتفاق والاختلاف ، فأننا نجد ما يلي:

أولا : إن هذه المراحل كلها جاءت تعلن التحدي بكل قوة وثقة.

ثانيا : إن المراحل الثلاث الأولى كلها مكية التنزيل ؛ فالآية الاولى من سورة الطور ، والثانية من سورة هود ، والثالثة من سورة يونس عليهما الصلاة والسلام ، وهذه السور مكية اتفاقا . أما الآية الرابعة فهي مدنية اتفاقا وهي من سورة البقرة.

ثالثا : إن المراحل الثلاث ، أما المرحلة الرابعة ، فقد خوطب بها الناس جميعا ، يدل لذلك سياق الآيات الكريمة ، وهي قوله} : ا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ] { البقرة : 21 – 23.[

رابعا : أن المراحل الثلاث الأولى مختلفة من حيث الأسلوب عن المرحلة الرابعة ، وإليكم بيان ذلك:

المرحلة الاولى} : فليأتوا بحديث مثله{والثانية} قل فآتوا بعشر سور مثله مفتريات {والثالثة {قل فأتوا بسورة مثله} . أما المرحلة الرابعة فجاء الأسلوب فيها {فأتوا بسورة من مثله} فكلمة ((من)) لم تذكر إلا في المرحلة الرابعة.

هناك اختلاف – إذن – بني المراحل الثلاث والمرحلة الرابعة من حيث التنزيل ، ومن حيث السياق ، ومن حيث الأسلوب ، ولهذه الفروق دلالاتها في تعيين أو ترجيح أحد القولين السابقين في بيان وجوه الإعجاز.

فإذا كان التحديث في المرحل الثلاث المخاطب به العرب ، والعرب كان البيان بضاعتهم والبلاغة سجيتهم ، فإن المرحلة الرابعة المخاطب بها الناس جميعا عربهم وعجمهم ، وإذا كانت المراحل الثلاث الأولى خالية من كلمة (من) ، فلقد جاءت المرحلة الرابعة مشتملة على هذا الحرف الدال على التبعيض ومعنى هذه المراحل الأخيرة ، كان التحديث فيها للناس جميعا ، ولا يعقل أن يتحدى الناس جميعا بالبيان وحده ، إنما هو تحد عام عموما المخاطبين به.

وبعد هذه الدراسة لمراحل التحديث نقرر مطمئنين أن وجوه الإعجاز متعددة ، وأن القرآن الكريم معجز من حيث بيانه ، ومن حيث تشريعه ، ومن حيث ما فيه من حقائق علمية وكونية ، ومن حيث ما فيه من أخبار الأمم السابقة ومن أخبار الغيب المستقبل ، ومن حيث تأثيره في النفوس ، من هذه الحيثيات وغيرها مما ستعلم نبأه بعد حيث إن شاء الله ، فلا تعجل ، فقبل أن نحدثك عن هذه الوجوه ، سنسير معا في رحلة تاريخية ، نتعرف من خلالها على جهود السابقين من العلماء ، وما نظمته أفكارهم ، وسطرته أقلامهم قديما وحديثا .

القدر المعجز من القران الكريم :

فلا نعلم أحدا من أهل العلم نص على التفريق بين السورة القصيرة والطويلة في الإعجاز، ولكن منهم من قال: لا يحصل الإعجاز بآية بل يشترط الآيات الكثيرة. كما ذكر السيوطي في (الإتقان.(

وقد وقع في القدر المعجز من القرآن خلاف بين أهل العلم على أقوال مشهورة:

- أولها: أن الإعجاز متعلق بجميع القرآن لا ببعضه، وهو قول مردود، قال به بعض المعتزلة.
- وثانيها: أن الإعجاز يتعلق بقليل القرآن وكثيره. وهذا ما رجحه الدكتور فهد الرومي في كتابه: (دراسات في علوم القرآن.(
- وثالثها: أن الإعجاز متعلق بسورة تامة طويلة أو قصيرة، وهذا رأي الجمهور.

قال الدكتور مصطفى مسلم في كتابه (مباحث في إعجاز القرآن :(ورأي الجمهور هنا هو الذي يظاهره ويؤيده ظاهر مراحل التحدّي فيه .اهـ.

وزاد بعضهم أنه يتعلق أيضًا بقدر سورة تامة، وأقصر سورة في القرآن ثلاث آيات، فيكون مقدار هذه السورة من الآيات معجز.

وهنا ننبه على أمر مهم ذكره الدكتور مصطفى مسلم فقال :يجب التفريق بين أمرين:

. الأول: ما وقع به التحدي، فالتحدي لم يقع على أقل من سورة، والسورة تطلق على القصيرة والطويلة، والسورة بشخصيتها المستقلة هي المقصودة في آيات التحدي، والإتيان بمثلها خارج عن طوق الإنس والجن وإن قصرت كسورة الكوثر.

. الأمر الثاني: القدر الدال على كون القرآن كلام الله، أي معرفة مصدر القرآن وكونه وحيا منزلا من الله، وهذا لا يتقيد فيه بمقدار معين، فقد يدرك ذلك من خلال سورة، أو من خلال آية واحدة، أو بعض آية أو كلمة واحدة، فورود بعض الكلمات في سياق الحقائق الكونية أو الحقائق العلمية في النفس الإنسانية يدل على أن ذلك لا يدخل في نطاق العلم البشري، كما في قوله تعالى: أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً* أَحْياءً وَأَمْواتاً [المرسلات: 25، 26]. وقوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً [الفرقان: 45، 46]. وقوله تعالى: يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ [الزمر: 6]. فهذه الحقائق لم تكن في مقدور أحد من البشر أن يحيط بها علما عند نزول القرآن الكريم، فدل ذلك على أن الذي يعلم السر في السماوات والأرض هو منزل القرآن الكريم .. اهـ.

عنوان المحاضرة – نظريات عن اعجاز القران في دراسات المتقدمين .

.Lecture Title – Theories on the Miracles of the Qur'an in applicant studies

هناك للعلماء ـ سلفاً وخلفاً ـ بحوث ودراسات وافية حول مسألة إعجاز القرآن ، مُنذ مطالع القرون الأُولى فإلى هذا الدور ، ولهم كلمات ومقالات ضافية عن وجه هذا الإعجاز المُتحدّي به من أَوّل يومه ، ولا يزال مُستمرّاً عِبر الخلود ولهذه الأبحاث والدراسات قيمتها ووزنها العلمي النظري في كلّ عصر وفي كلّ دور ، وأنّ الفضل يرجع إلى الأسبق ممّن فتح هذا الباب وأَسّس أساس هذا البنيان ، فكان مَن يأتي مِن بعد ، إنّما يجري على منواله ويضرب على ذات وتره ، مهما تغيّر اللون أو تنوّع الأُسلوب . ونحن نقدّم من آراء مَن سلف الأهمّ منها فالأهمّ ، ثُمّ نعقبها بطرف من آراء المتأخّرين ممّن قاربنا عصره ، وعلى أيّ تقدير ، فإنّ مساعيهم جميعاً مشكورة ، ومواقفهم في استنباط حقائق من الكتاب العزيز مقدّرة ، فلله درّهم وعليه أجرهم ، وإليك :

1 ـ رأي أبي سليمان البُستي :

يرى أبو سليمان حمد بن محمّد بن إبراهيم الخطّابي البُستي (1) (توفّي سنة 388هـ) في رسالته الوجيزة التي وضعها في بيان إعجاز القرآن ـ ولعلّه أَسبق مِن توسّع في هذا البحث أفاد وأجاد ـ : أنّ الإعجاز قائم بنظمه ، ذلك المتّسق البديع ورصفه ، ذلك المؤتلف العجيب ، قد وُضعت كلّ كلمة في موضعها اللائق بدقّة فائقة ، ممّا يستدعي إحاطة شاملة تعوزها البشرية على الإطلاق ، الأمر الذي أبهر وأعجب .

قال : قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديماً وحديثاً ، وذهبوا فيه كلّ مذهب من القول وما وجدناهم بعدُ ، صَدَروا عن ريٍّ ؛ وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن ، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيّته ، فأمّا أن يكون قد نقبت في النفوس نقبة (2) بكونه معجزاً للخلق ممتنعاً عليهم الإتيان بمِثله على حال ، فلا موضع لها ، والأمر في ذلك أَبين مِن أن نحتاج إلى أن نُدِلّ عليه بأكثر من الوجود القائم المستمرّ على وجه الدهر ، من لدن عصر نزوله إلى الزمان الراهن الذي نحن فيه ، وذلك أنّ النبي (صلّى الله عليه وآله) قد تحدّى العرب قاطبةً بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه ، وقد بقيَ (صلّى الله عليه وآله) يُطالبهم به مدّة عشرين سنة ، مُظهِراً لهم النكير ، زارياً على أديانهم ، مُسفِّهاً آراءهم وأحلامهم ، حتى نابذوه وناصبوه الحرب فهلكت فيه النفوس ، وأُريقت المُهج ، وقُطعت الأرحام ، وذهبت الأموال .

ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم لم يتكلّفوا هذه الأُمور الخطيرة ، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة ، ولم يكونوا تركوا السَهل الدَمِث من القول ، إلى الحَزِن الوعر من الفعل .

هذا مالا يفعله عاقل ولا يختاره ذو لبّ ، وقد كان قومه قريش خاصّة موصوفين برزانة الأحلام ووفارة العقول والألباب ، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلّقون ، وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجدل واللَّدَد ، فقال سبحانه : {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ } [الزخرف : 58] ، وقال سبحانه : {وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} [مريم : 97] ، فكيف كان جوز ـ على قول العرب ومجرى العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة ـ أن يغفلوه

ولا يهتبلوا الفرصة فيه وأن يضربوا عنه صَفحاً ، ولا يجوزوا الفلح والظفر فيه ، لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع منه .

قال : وهذا ـ من وجوه ما قيل فيه ـ أبينُها دلالةً وأَيسرها مؤونةً ، وهو مُقنع لمَن تُنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإعجاز فيه .

2 ـ اختيار ابن عطيّة :

ولأبي محمّد عبد الحقّ بن غالب المحاربي الغرناطي ـ الفقيه المفسّر (توفّي سنة 542هـ) ـ اختيار يشبه اختيار أبي سليمان البُستي ، ولعلّه اختزال منه ، ذَكره في مقدّمة تفسيره (المحرّر) ونقله الإمام بدر الدين الزركشي ، مع تصرّف واختصار .

قال ابن عطيّة : إنّ الذي عليه الجمهور والحذّاق ـ وهو الصحيح في نفسه ـ أنّ التحدّي إنّما وقع بنظمه ، وصحّة معانيه ، وتوالي فصاحة ألفاظه ، ووجه إعجازه أنّ الله قد أحاط بكلّ شيء علماً ، وأحاط بالكلام كلّه علماً ، فإذا ترتّبت اللفظة من القرآن علم ـ بإحاطته ـ أيّ لفظة تصلح أن تلي الأُولى ، ويتبيّن المعنى دون المعنى ، ثُمّ كذلك من أَوّل القرآن إلى آخره .

والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلومٌ ضرورةً أنّ بشراً لم يكن قطّ مُحيطاً ، فبهذا جاء نظم القرآن ، في الغاية القصوى من الفصاحة ، وبهذا النظر يَبطل قول مَن قال : إنّ العرب كان في قدرتها الإتيان بمِثله ، فلمّا جاءهم محمّد (صلّى الله عليه وآله) صُرفوا عن ذلك وعَجزوا عنه ! والصحيح أنّ الإتيان بمِثل القرآن لم يكن قطّ في قدرة أحد مِن المخلوقين ، ويظهر لك قصور البشر ، في أنّ الفصيح منهم يضع خطبةً أو قصيدةً يستفرغ فيها جهده ، ثُمّ لا يزال يُنقِّها حولاً كاملاً ، ثُمّ تُعطى لأحد نظيره فيأخذها بقريحة خاصّة فيُبدّل فيها ويُنقّح ، ثُمّ لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل .

وكتاب الله سبحانه لو نُزعت منه لفظة ، ثمّ أُدير لسان العرب على لفظة في أن يوجد أحسن منها لم توجد ، ونحن تتبيّن لنا البراعة في أكثره ، ويخفى علينا وجهها في مواضع ؛ لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذٍ في سلامة الذوق ، وجودة القريحة ، وميز الكلام .

قال : وقامت الحجّة على العالم بالعرب ؛ إذ كانوا أرباب الفصاحة وفطنة المعارضة كما قامت الحجّة في معجزة عيسى بالأطبّاء ، وفي معجزة موسى بالسَحَرة ، فإنّ الله تعالى إنّما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أَبرع ما يكون في زمن النبيّ الذي أراد إظهاره ، فكان السحر في مدّة موسى قد انتهى إلى غايته ، وكذلك الطبّ في زمن عيسى ، والفصاحة في مدّة محمّد (صلّى الله عليه وسلم) .

3 . رأي عبد القاهر الجرجاني :

يرى الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني (تُوفّي سنة 472هـ) . وهو الواضع الأَوّل لأُسس عِلمَي المعاني والبيان . : أنّ إعجاز القرآن الذي تحدّى به العرب قائم بجانب فصاحته البالغة وبلاغته الخارقة ، وبأُسلوب بيانه ذلك البديع ، ممّا هو شأن نظم الكلام وتأليفه في ذلك التنافس والتلاؤم العجيب ، الأمر الذي لا يمسّ شيئاً من معاني القرآن وحِكَمِه وتشريعاته ، وهي كانت موجودةً من ذي قبل في كتب السالفين ، وقد أطلق لهم المعاني من أيّ نمط كانت .

وقد وضع كتابَيه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) تمهيداً لبيان وجوه إعجاز القرآن لمن مارس أسرار هذا العلم . وثَلّثهما برسالته (الشافية) التي خصّصها بالكلام حول إعجاز القرآن والإجابة على أسئلة دارت حول الموضوع . قال . في مقدّمة كتابه (دلائل الإعجاز) بعد أن أشاد بشأن النَظم في الكلام وتأليفه وتنسيقه . : وإذا كان ذلك كذلك فما جوابنا لخصم يقول لنا : إذا كانت هذه الأُمور الوجوه من التعلّق التي هي محصول النظم موجودة على حقائقها وعلى الصحّة وكما ينبغي في منثور كلام العرب ومنظومه ، ورأيناهم قد استعملوها وتصرّفوا فيها وكملوا بمعرفتها ، وكانت حقائق لا تتبدّل ولا يختلف بها الحال ، إذ لا يكون للاسم بكونه خبراً لمبتدأ أو صفة لموصوف أو حالاً لذي حال أو فاعلاً أو مفعولاً لفعل في كلام حقيقة هي خلاف حقيقته في كلام آخر .

فما هذا الإعجاز الذي تجدّد بالقرآن من عظيم مزيّة ، وباهر الفضل ، والعجيب من الوصف ، حتّى أعجز الخلق قاطبةً ، وحتّى قهر من البلغاء والفصحاء القُوَى والقُدَر ، وقيّد الخواطر والفكر ، حتّى خرست الشقاشق وعدم نطق الناطق ، وحتّى لم يجرِ لسان ، ولم يبنِ بيان ، ولم يساعد إمكان ، ولم ينقدح لأحد منهم زند ، ولم يمضِ له حدّ ، وحتّى أَسال الوادي عليهم عجزاً ، وأخذ منافذ القول عليهم أخذاً ؟!

أَيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله ، ونردّه عن ضلاله ، وأن نطبّ لدائه ، ونزيل الفساد عن رائه ؟ فإن كان ذلك يلزمنا فينبغي لكلّ ذي دين وعقل أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه (يريد نفس كتاب دلائل الإعجاز) ويستقصي التأمّل لما أودعناه .

وكرّ في الكتاب قائلاً : وإنّه كما يَفضل النظمُ النظمَ ، والتأليفُ التأليفَ ، والنسجُ النسجَ ، والصياغةُ الصياغةَ ، ثُمّ يعظُم الفضل ، وتكثر المزيّة ، حتّى يفوق الشيء نظيره ، والمجانس له درجات كثيرة ، وحتّى تتفاوت القيم التفاوت الشديد ، كذلك يفضل بعضُ الكلام بعضاً ، ويتقدّم منه الشيء الشيء ، ثُمّ يزداد من فضله ذلك ، ويترقّى منزلةً فوق منزلة ، ويعلو مرقباً بعد مَرْقب ، ويستأنف له غاية بعد غاية ، حتّى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع ، وتنحسر الظنون ، وتسقط القُوى ، وتستوي الأقدام في العجز (6) .

ثم قال : واعلم أنّه لا سبيل إلى أن تعرف صحّة هذه الجملة حتّى يبلغ القول غايته ، وينتهي إلى آخر ما أردت جمعه لك ، وتصويره في نفسك ، وتقريره عندك ، إلاّ أنّ هاهنا نكتة ، إن أنت تأمّلتها تأمّل المُتثبّت ، ونظرت فيها نظر المُتأنّي ، رجوت أن يحسن ظنّك ، وأن تنشط للإصغاء إلى ما أورده عليك ، وهي : إنّا إذا سقنا دليل الإعجاز فقلنا : لولا أنّهم حين سمعوا القرآن ، وحين تحدّوا إلى معارضته ، سمعوا كلاماً لم يسمعوا قطّ مِثله ، وأنّهم قد رازوا أنفسهم فأحسّوا بالعجز على أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه ، أو يقع قريباً منه ، لكان محالاً أن يدّعوا معارضته وقد تحدّوا إليه ، وقرعوا فيه ، وطولبوا به ، وأن يتعرّضوا لشبا الأسنّة ويقتحموا موارد الموت .

فقيل لنا : قد سمعنا ما قلتم ، فخبّرونا عنهم ، عمّاذا عجزوا ، أَعَن معانٍ من دقة معانيه وحسنها وصحّتها في العقول ؟ أم عن ألفاظ مِثل ألفاظه ؟ فإن قلتم : عن الألفاظ ، فماذا أَعجزهم من اللفظ ، أم بهرهم منه ؟

فقلنا : أَعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نَظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ، ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كلّ مثل ، ومساق كلّ خبر ، وصورة كلّ عظة وتنبيه وإعلام وتذكير وترغيب وترهيب ، ومع كلّ حجّة وبرهان ، وصفة وتبيان ، وبهرهم أنّهم تأمّلوه سورة سورة ، وعشراً عشراً ، وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها ، أو يَرى أنّ غيرها أصلح هناك أو أشبه ، أو أحرى وأخلق ، بل وجدوا اتّساقاً بَهر العقول ، وأَعجز الجمهور ، ونظاماً والتئاماً ، وإتقاناً وإحكاماً ، لم يدع في نفس بليغ منهم لو حكّ بيافوخه السماء موضع طمع حتّى خرست الألسن عن أن تدّعي وتقول ، وخلدت القُروم فلم تملك أن تصول (7) .

ويُعقّب ذلك بأنّ هذه كانت دلائل إعجاز القرآن ، ومزايا ظهرت في نَظمه وسياقه ، بَهرت العرب الأوائل ، فهل ينبغي للفتى الذكي العاقل أن يكون مُقلّداً في ذلك ؟ أم يكون باحثاً ومتتبّعاً كي يعلم ذلك بيقين ؟ ومِن ثَمّ وَضع كتابه الحاضر (دلائل الإعجاز) ليَدلّ الناشدينَ على ضالّتهم ، ويضع يدهم على مواقع الإعجاز من القرآن ، ويدعم مُدّعاه في ذلك بالحجّة والبرهان ، والرائد لا يُكذِّب أهله ، قال : وبذلك قد قطعتُ عذرَ المتهاون ، ودللت على ما أضاع من حظّه ، وهدايته لرشده (8) .

وقال ـ في رسالته (الشافية) : كيف يجوز أن يظهر في صميم العرب وفي مِثل قريش ذوي الأَنفس الأبيّة والهِمم العليّة والأَنفة والحميّة مَن يدّعي النبوّة ويقول : وحجّتي أنّ الله قد أنزل عليّ كتاباً تعرفون ألفاظه وتفهمون معانيه ، إلاّ أنّكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله ولا بعشر سورٍ منه ولا بسورة واحدة ، ولو جَهدتم جهدَكم واجتمع معكم الجنّ والإنس ، ثُمّ لا تدعوهم نفوسهم إلى أن يعارضوه ويبيّنوا سَرَفه في دعواه ، لو كان ممكناً لهم ، وقد بلغ بهم

الغيظ من مقالته حدّاً تركوا معه أحلامهم وخرجوا عن طاعة عقولهم ، حتّى واجهوه بكلّ قبيح وَلَقوه بكلّ أذىً ومكروه ووقفوا له بكلّ طريق .

وهل سُمع قطّ بذي عقل استطاع أن يخرس خصمه بكلمة يجيبه بها ، فيترك ذلك إلى أُمور ينسب معها إلى ضيق الذَرع ، وأنّه مغلوب قد أَعوزته الحيلة وعزّ عليه المَخلص ؟ وهل مِثل هذا إلاّ مِثل رجل عَرض له خصم فادّعى عليه دعوى خطيرة وأقام على دعواه بيّنةً ، وكان عند المدّعى عليه ما يُبطل تلك البيّنة أو يُعارضها ، فيترك إظهار ذلك ويضرب عنه الصفح جملةً ، ليصير الحال بينهما إلى جِدال عنيف وإخطار بالمُهج والنفوس ؟ قال : هذه شهادة الأحوال ، وأمّا شهادة الأقوال فكثيرة .

ثمّ قال : في وجه التحدّي . : لم يكن التحدّي إلى أن يُعبّروا عن معاني القرآن أنفسها وبأعيانها بلفظ يُشبه لفظه ونَظم يوازي نظمه ، هذا تقدير باطل ، فإنّ التحدّي كان إلى أن يجيئوا ، في أيّ معنى شاءوا من المعاني ، بنَظم يبلغ نظم القرآن ، في الشرف أو يقرُب منه ، يدلّ على ذلك قوله تعالى : {قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ} [هود : 13] أي مِثله في النظم ، وليكن المعنى مُفترى لِما قلتم ، فلا إلى المعنى دعيتم ، ولكن إلى النظم ... .

قال : ويجزم القول بأنّهم تحدّوا إلى أن يجيئوا في أيّ معنى أرادوا مطلقاً غير مقيّد ، وموسّعاً عليهم غير مضيّق ، بما يشبه نظم القرآن أن يقرب من ذلك (11) .

4 . رأي السكّاكي :

يرى أبو يعقوب يوسف بن محمّد بن علي السكّاكي . صاحب (مفتاح العلوم) (توفّي سنة 567 هـ) . أنّ الإعجاز في القرآن أمرٌ يُمكن دركه ولا يمكن وصفه ، والمَدرك هو الذوق ، الحاصل من ممارسة عِلمَي الفصاحة والبلاغة وطول خدمتهما لا غير ، فقد جعل للبلاغة طرفينِ ، أعلى وأسفل وبينهما مراتب لا تُحصى ، والدرجة السُفلى هي التي إذا هبط الكلام عنها شيئاً التَحق بأصوات الحيوانات ، ثُمّ تتزايد درجةً درجةً متصاعدة ، حتّى تبلغ قمّتها وهو حدّ الإعجاز ، وهو الطرف الأعلى وما يقرب منه ، فقد جعل من الدرجة القصوى وما يقرب منها كليهما مِن حدّ الإعجاز .

ثُمّ قال بشأن الإعجاز : واعلم أنّ شأن الإعجاز عجيب ، يُدرك ولا يُمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تُدرك ولا يُمكن وصفها ، وكالمَلاحة ، ومَدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلاّ ، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذينِ العِلمَينِ (المعاني والبيان) .

ثمّ أخذ في تحديد البلاغة وإماطة اللثام عن وجوهها المُحتجبة ، وكذا الفصاحة بقسميها اللفظيّ والمعنويّ ، وضرب لذلك مثلاً بآية {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ} [هود : 44] وبيان جهاتها الأربع من جهتي المعاني والبيان ، وهما مَرجعا البلاغة ، ومِن جهتي الفصاحة المعنوية واللفظية ، وأسهب في الكلام عن ذلك ، وقال أخيراً : ولله دَرّ التنزيل ، لا يتأمّل العالم آية من آياته إلاّ أدرك لطائف لا تسع الحصر (12) .

وغرضه من ذلك : أنّ لحدّ الإعجاز ذروةً لا يبلغها الوصف ، ولكن يُمكن فهمها ودرك سَنامها ؛ بسبب الإحاطة بأسرار هذين العِلمَينِ ، فهي حقيقة تُدرك ولا توصف .

5 ـ رأي الراغب الأصفهاني :

لأبي القاسم الحسين بن محمّد المعروف بالراغب الأصفهاني (توفّي سنة 502 هـ) ـ صاحب كتاب (المفردات) ـ رأي في إعجاز القرآن يخصّه ، إنّه يرى من الإعجاز قائماً بسبكه الخاصّ الذي لم يألفه العرب لحدّ ذاك ، فلا هو نثر كنثرهم المعهود ؛ لأنّ فيه الوزن والقافية وأجراس النغم ، ولا هو شعر ؛ لأنّه لم يجرِ مجرى سائر أشعار العرب ولا على أوزانها المعروفة وإن كانت له خاصّية الشعر من التأثير في النفس بلحنه الشعريّ النغميّ الغريب .

قال ـ بعد كلام له في وصف إعجاز القرآن قدّمناه آنفاً ـ :

وهذه الجملة المذكورة ، وإن كانت دالّةً على كون القرآن مُعجزاً ، فليس بمقنع إلاّ بتبيين فصلَينِ :

أحدهما : أن يُبيّن ما الذي هو مُعجز : اللفظ أم المعنى أم النظم ؟ أم ثلاثتها ؟ فإنّ كلّ كلام منظوم مشتمل على هذه الثلاثة .

والثاني : أنّ المُعجز هو ما كان نوعه غير داخل تحت الإمكان ، كإحياء الموتى وإبداع الأجسام .

فأمّا ما كان نوعه مقدوراً ، فمحلّه محلّ الأفضل ، وما كان من باب الأفضل في النوع فإنّه لا يحسم نسبة ما دونه إليه ، وإن تباعدت النسبية حتّى صارت جزءً مِن ألف ، فإن النجّار الحاذق وإن لم يُبلغ شَأوَه لا يكون مُعجزاً إذا استطاع غيره جنسَ فِعْلِه ، فنقول وبالله التوفيق :

إنّ الإعجاز في القرآن على وجهين : أحدهما إعجاز متعلّق بفصاحته ، والثاني بصرف الناس عن معارضته .

فأمّا الإعجاز المتعلّق بالفصاحة : فليس يتعلّق ذلك بعنصريه الذي هو اللفظ والمعنى ؛ وذاك أنّ ألفاظه ألفاظهم ، ولذلك قال تعالى : {قُرْآنًا عَرَبِيًّا } [يوسف : 2] وقال : {الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ } [البقرة : 1، 2] تنبيهاً أن هذا الكتاب مُركّب من هذه الحروف التي هي مادّة الكلام .

ولا يتعلّق أيضاً بمعانيه ، فإن كثيراً منها موجود في (الكتب المتقدّمة) ولذلك قال تعالى : { وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ} [الشعراء : 196] وقال : {أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى} [طه : 133] ، وما هو مُعجز فيه من جهة المعنى كالإخبار بالغيب فإعجازه ليس يرجع إلى القرآن بما هو قرآن ، بل هو لكونه خبراً بالغيب ، وذلك سواء كونه بهذا النظم أو بغيره ، وسواء كان مورداً بالفارسيّة أو بالعربيّة أو بلغة أُخرى ، أو بإشارة أو بعبارة .

فإذا بالنَظم المخصوص صار القرآن قرآناً ، كما أنّه بالنَظم المخصوص صار الشعر شعراً ، والخطبة خطبةً .

فالنظم صورة القرآن ، واللفظ والمعنى عنصراه ، وباختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه لا بعنصره ، كالخاتم والقُرط والخَلخال اختلفت أحكامها وأسماؤها باختلاف صورها لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضّة ، فإذا ثَبت هذا ثبت أنّ الإعجاز المختصّ بالقرآن متعلّق بالنظم المخصوص .

وبيان كونه مُعجزاً هو أن نُبيّن نظم الكلام ، ثُمّ نُبيّن أنّ هذا النظم مخالف لنظم سائره ، فنقول : لتأليف الكلام خمس مراتب :

الأُولى : النظم : وهو ضمّ حروف التهجّي بعضها إلى بعض ، حتّى تتركّب منها الكلمات الثلاث : الاسم والفعل والحرف .

والثانية : أن يُؤلّف بعض ذلك مع بعض حتّى تتركب منها الجمل المفيدة وهي النوع الذي يتداوله الناس جميعاً في مخاطباتهم ، وقضاء حوائجهم ، ويُقال له : المنثور من الكلام .

والثالثة : أن يضمّ بعض ذلك إلى بعض ضمّاً له مبادٍ ومقاطع ومداخل ومخارج ، ويُقال له : المنظوم .

والرابعة : أن يُجعل له في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع ، ويقال له : المُسجّع .

والخامسة : أن يُجعل له مع ذلك وزن مخصوص ، ويُقال له : الشعر ، وقد انتهى .

وبالحقّ صار كذلك ، فإنّ الكلام إمّا منثور فقط ، أو مع النثر نظم ، أو مع النظم سجع ، أو مع السجع وزن

والمنظوم : إمّا محاورة ويُقال له : الخطابة ، أو مكاتبة ويقال لها : الرسالة ، وأنواع الكلام لا تخرج عن هذه الجملة ، ولكلّ من ذلك نظم مخصوص .

والقرآن حاوٍ لمحاسن جميعه بنَظم ليس هو نظم شيء منها ، بدلالة أنّه لا يصح أن يُقال : (القرآن رسالة ، أو خطابة ، أو شعر ، كما يَصحّ أن يُقال : هو كلام ، ومَن قرع سمعه فصل بينه وبين سائر النَظم ، ولهذا قال تعالى : {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ} [فصلت : 41، 42] تنبيهاً أنّ تأليفه ليس على هيئة نظم يتعاطاه البشر ، فيمكن أن يزاد فيه كحال الكتب الأخر .

فإن قيل : ولِمَ لمْ يُبلغ بنظم القرآن الوزن الذي هو الشعر ، وقد عُلم أنّ للموزون من الكلام مرتبةً أعلى مِن مرتبة المنظوم غير الموزون ؛ إذ كلّ موزون منظوم وليس كلّ منظوم موزوناً ؟

قيل : إنما جُنّب القرآن نظم الشعر ووزنه لخاصّية في الشعر منافية للحِكمة الإلهية ، فإنّ القرآن هو مقرّ الصدق ، ومعدن الحقّ ، وقصوى الشاعر : تصوير الباطل في صورة الحقّ ، وتجاوز الحدّ في المدح والذمّ دون استعمال الحقّ في تحرّي الصدق ، حتّى أنّ الشاعر لا يقول الصدق ولا يتحرّى الحقّ إلاّ بالعَرض ، ولهذا يُقال : مَن كان قوّته الخياليّة فيه أكثر كان على قَرض الشعر أقدر ، ومَن كانت قوّته العاقلة فيه أكثر كان في قرضه أقصر .

ولأجل كون الشعر مقرّ الكذب ، نزّه الله نبيّه (صلّى الله عليه وآله) عنه ؛ لِما كان مُرشّحاً لصدق المَقال ، وواسطة بين الله وبين العباد ، فقال تعالى : {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} [يس : 69] فنفى ابتغاءه له ، وقال : {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ} [الحاقة : 41] أي : ليس بقول كاذب ، ولم يعنِ أن ذلك ليس بشعر ، فإنّ وزن الشعر أَظهر مِن أن يشتبه عليهم حتّى يحتاج إلى أن ينفي عنه . ولأجل شهرة الشعر بالكذب سُميّ أصحاب البراهين الأقيسة المؤدّية في أكثر الأمر إلى البطلان والكذب شعريّة ، وما وقع في القرآن من ألفاظ مُتّزنة فذلك بحسب ما يقع في الكلام على سبيل العَرض بالاتّفاق ، وقد تكلّم الناس فيه .

وأمّا الإعجاز المتعلّق بصرف الناس عن معارضته فظاهر أيضاً إذا اعتُبر ؛ وذلك أنّه ما مِن صناعة ولا فِعلة من الأفعال محمودةً كانت أو مذمومةً إلاّ وبينها وبين قوم مناسبات خفية واتّفاقات إلهية ، بدلالة أنّ الواحد يُؤثر حِرفة من الحِرف فينشرح صدره بملابستها وتطيعه قُواه في مزاولتها ، فيقبلها باتّساع قلب ، ويتعاطاها بانشراح صدر ، وقد تَضمّن ذلك قوله تعالى {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة : 48] وقول النبيّ (صلّى الله عليه وآله) : (اعملوا فكلٌّ مُيسّر لِما خُلق له) (14) . فلما رُئي أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كلّ وادٍ من المعاني بسلاطة ألسنتهم ، وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن ، وعجزهم عن الإتيان بمِثله ، وليس تهتزّ غرائزهم البتة للتصدّي لمعارضته ، لم يخفَ على ذي لبّ أنّ صارفاً إلهياً يَصرفهم عن ذلك ، وأيّ إعجاز أعظم مِن أن تكون كافّة البلغاء مُخيّرة في الظاهر أن يُعارضوه ، ومُجبرة في الباطن عن ذلك ، وما أليقهم بإنشاد ما قال أبو تمام :

فإنْ نكُ أُهمِلنا فَأَضعِف بِسَعينا وإنْ نَكُ أُجبِرنا فَفيمَ نُتَعتِعُ

6 . رأي الإمام الرازي :

ولأبي عبد الله محمّد بن عمر بن حسين فخر الدين الرازي (توفّي سنة 606هـ) . المفسّر المتكلّم الأُصولي الكبير . رأي في إعجاز القرآن طريف ، وهو جَمْعه بين أُمور شتّى ، كانت تستدعي هبوطاً في فصاحة الكلام ، لو كان أحد مِن البشر حاول القيام بها أجمع ، لولا أنّ القرآن كلام الله الخارق لَمألوف الناس ، فقد جمع بين أفنان الكلام ، ومع ذلك فقد بلغ الغاية في الفصاحة ، وتسنّم الذروة من البلاغة ، وهذا أمرٌ عجيب !

قال : اعلم أنّ كونه (القرآن) معجزاً يُمكن بيانه من طريقينِ :

(الأوّل) أن يقال : إنّ هذا القرآن لا يخلو حاله من أحد وجوه ثلاثة : إمّا أن يكون مساوياً لسائر كلام الفصحاء ، أو زائداً على سائر كلام الفصحاء بقدرٍ لا ينقض العادة ، أو زائداً عليه بقدرٍ ينقض ، والقسمان الأوّلان باطلان فتعيّن الثالث .

وإنّما قلنا : إنّهما باطلان ؛ لأنّه لو كان كذلك لكان من الواجب أن يأتوا بمِثل سورة منه إمّا مجتمعينَ أو منفردينَ ، فإن وقع التنازع وحصل الخوف من عدم القبول فالشهود والحُكّام يُزيلون الشبهة ، وذلك نهاية في الاحتجاج ؛ لأنّهم كانوا في معرفة اللغة والاطّلاع على قوانين الفصاحة في الغاية ، وكانوا في مَحبّة إبطال أمره في الغاية ، حتّى بذلوا النفوس والأموال ، وارتكبوا ضروب المَهالك والمِحن ، وكانوا في الحميّة والأَنَفة على حدّ لا يقبلون الحقّ فكيف الباطل ! ، وكلّ ذلك يُوجب الإتيان بما يقدح في قوله ، والمعارضة أقوى القوادح ، فلمّا لم يأتوا بها عِلمنا عَجزهم عنها ، فثبت أنّ القرآن لا يُماثل قولهم ، وأنّ التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتاً معتاداً ، فهو إذاً تفاوت ناقض للعادة ، فوجب أن يكون معجزاً .

واعلم أنّه قد اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضي نُقصان فصاحته ، ومع ذلك فإنّه في الفصاحة بلغ النهاية التي لا غاية لها وراءها ، فدلّ ذلك على كونه معجزاً .

أحدها : أنّ فصاحة العرب أكثرها في وصف مشاهدات ، مثل وصف بعير أو فرس أو جارية أو مَلِك أو ضربة أو طعنة أو وصف حرب أو وصف غارة ، وليس في القرآن من هذه الأشياء شيء ، فكان يجب أن لا تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التي اتّفقت العرب عليها في كلامهم .

وثانيها : أنّه تعالى راعى فيه طريقةَ الصدق وتنزّه عن الكذب في جميعه ، وكلّ شاعر ترك الكذب والتزم الصدق نَزَل شعره ولم يكن جيّداً ، أَلا ترى أنّ لبيد بن ربيعة وحسّان بن ثابت لمّا أَسلما نَزَل شعرهما ولم يكن شعرهما الإسلامي في الجودة كشعرهما الجاهلي ، وأنّ الله تعالى مع ما تنزّه عن الكذب والمجازفة جاء بالقرآن فصيحاً كما ترى .

وثالثها : أنّ الكلام الفصيح والشعر الفصيح إنّما يتّفق في القصيدة في البيت والبيتينِ والباقي لا يكون كذلك ، وليس كذلك القرآن ؛ لأنّه كلّه فصيح بحيث يعجز الخَلق عنه كما عجزوا عن جملته .

ورابعها : أنّ كلّ مَن قال شعراً فصيحاً في وصف شيء فإنّه إذا كرّره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأَوّل ، وفي القرآن التَّكرار الكثير ، ومع ذلك كلّ واحد منها في نهاية الفصاحة ولم يظهر التفاوت أصلاً .

وخامسها : أنّه اقتصر على إيجاب العبادات وتحريم القبائح والحثّ على مكارم الأخلاق وترك الدنيا واختيار الآخرة ، وأمثالُ هذه الكلمات تُوجب تقليل الفصاحة .

وسادسها : أنّهم قالوا في شعر امرئ القيس : يَحسن عند الطرب وذِكر النساء وصِفة الخَيل ، وشِعر النابغة عند الخوف ، وشعر الأعشى عند الطلب ووصف الخَمر ، وشعر زهير عند الرغبة والرجاء ، وبالجملة فكلّ شاعر يحسن كلامه في فنّ ، فإنّه يَضعف كلامه في غير ذلك الفنّ ، أمّا القرآن فإنّه جاء فصيحاً في كلّ الفنون على غاية الفصاحة .

أَلا ترى أنّه سبحانه وتعالى قال في الترغيب : {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة : 17] وقال تعالى : {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ} [الزخرف : 71].

وقال في الترهيب : {أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ } [الإسراء : 68] ، وقال : { أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} [الملك : 16] ، وقال : {كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ} [إبراهيم : 15 – 17] .

وقال في الزجر مالا يبلغه وَهْم البشر ، وهو قوله : {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا} [العنكبوت : 40] .

وقال في الوعظ ما لا مَزيد عليه {أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ} [الشعراء : 205].

وقال في الإلهيّات : {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ} [الرعد : 8] .

وسابعها : أنّ القرآن أصل العلوم كلّها ، فعِلم الكلام كلّه في القرآن ، وعِلم الفقه كلّه مأخوذ من القرآن ، وكذلك علم أُصول الفقه ، وعلم النحو واللغة ، وعلم الزهد في الدنيا ، وأخبار الآخرة ، واستعمال مكارم الأخلاق .

ومَن تأمّل كتابنا في دلائل الإعجاز (16) علم أنّ القرآن قد بلغ في جميع وجوه الفصاحة إلى النهاية القصوى

(الطريق الثاني) أن نقول : إنّ القرآن لا يخلو إمّا أن يُقال إنّه كان بالغاً في الفصاحة إلى حدّ الإعجاز ، أو لم يكن كذلك . فإن كان الأوّل ثبت أنّه معجز ، وإن كان الثاني كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة ، فعدم إتيانهم بالمعارضة ، مع كون المعارضة ممكنةً ، ومع توفّر دواعيهم على الإتيان بها أمر خارق للعادة ، فكان ذلك معجزاً ، فثبت أنّ القرآن معجز على جميع الوجوه ، وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب (17) .

وكلامه هذا الأخير لعلّه ترجيح للقول بالصِّرفة !

عنوان المحاضرة -]إعجاز القرآن في دراسات المعاصرين[

[Lecture Title - [The Miracle of the Qur'an in Contemporary Studies

– 1 مصطفى صادق الرافعي وكتابه» إعجاز القرآن والبلاغة النبوية:«

ولد الرافعي عام 1297 هـ، وعاش في طنطا بمصر، وأصله من طرابلس الشام عالم بالأدب شاعر كتاب، له» ديوان شعر «في ثلاثة أجزاء، و» تاريخ أدب العرب «جزآن، و» إعجاز القرآن والبلاغة النبوية«، و» تحت راية القرآن«، و» أوراق الورد «وغيرها من كتب الأدب. كان أبرز من تصدى لطه حسين في كلامه حول الشعر الجاهلي. توفي بطنطا سنة 1356 هـ. كان أصل الكتاب جزءا من كتابه» تاريخ آداب العرب «ثم نشره بعد ذلك كتابا مستقلا.

يذهب الرافعي إلى) أن القرآن معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، حين ينفي الإمكان بالمعجز عن غير الممكن، فهو– أي القرآن– لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغا، وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة، وإنما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية، يشاركها في إعجاز الصنعة وهيئة الوضع، وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ كأنها مفرّغة إفراغا من ذوب تلك المواد كلها.(1) (

ويحدد الرافعي في موضع آخر من كتابه جهات الإعجاز فيقول:

)إنما هي صفات من نظم القرآن وطريقة تركيبه، فنحن الآن قائلون في سر الإعجاز الذي قامت عليه هذه الطريقة وانفرد به ذلك النظم.(1) (

فإعجاز القرآن في بلاغة النظم. وقسم الرافعي النظم إلى الحروف والكلمات والجمل.

]الحروف[

يقول الرافعي) :إن القيمة الفنية للحروف كامنة في كونها دالة على أصوات والصوت وسيلة من وسائل التعبير، وهو يحمل رعشات الطرب، واضطرابات الفزع، وهمسات لا يفسرها غير سماعها، فأصوات الحروف إنما تنزل منزلة

النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيف اتفقت، فلا بد لها مع ذلك من نوع في التركيب وجهة من التأليف حتى يمازج بعضها بعضا، ويتألف منها شيء فتتداخل خواصها وتتجمع صفاتها ويتكون منها اللحن الموسيقى.(2) (

)وحسبك بهذا اعتبارا في إعجاز النظم القرآني، وأنه مما لا يتعلق به أحد، ولا يتفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلا فيه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر والشدة والرخاوة والتفخيم والترقيق والتفشي والتكرير.(3) (

]الكلمات وحروفها[

ثم يتحدث الرافعي عن الجمال التنسيقي في صف الحروف في الكلمات والذي يتجلى في جوانب ثلاثة:

الأول :دلالة الكلمة الموضعية الذي سماه) صوت النفس (أي المناسبة بين الكلمة ومدلولها.

الثاني :الدلالة العقلية للكلمات في الجملة والذي سماه) صوت العقل (وهي دلالة الكلمة البيانية.

الثالث :تفاوت الجمل في دقة التصوير والإبداع، والذي سماه) صوت الحسّ (وهو أبلغ الثلاث.

ويقول الرافعي:

)إن القرآن قد حاز القدر المعجز من هذا الجانب بل هو روح الإعجاز في القرآن الكريم فالقرآن يبادرك الروعة في كل جزء منه، كما تبادرك الحياة في كل حركة للجسم الحي.(1) (

)ولو تدبرت ألفاظ القرآن الكريم في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب، مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، فيهيّئ بعضها لبعض، ويساند بعضها بعضا، والتي لا تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النغم الموسيقى.(2) (

]الجمل وكلماتها[

تحدث الرافعي عن التنسيق في انتظام الكلمات في الجملة، والتعابير تتفاوت في الفصاحة والبلاغة والحسن والجمال، بمقدار التنسيق الموجود في الجمل التي تتألف فيها .... وأسلوب القرآن بلغ في هذا التنسيق حد الإعجاز، وإنما اطرد ذلك للقرآن من جهة تركيبه الذي انتظم أسباب الإعجاز، من الصوت في الحرف إلى الحرف في الكلمة إلى الكلمة في الجملة، حتى يكون الأمر مقدّرا على تركيب الحواس النفسية في الإنسان تقديرا يطابق وضعها وقواها وتصرفها(

)فأنت ما دمت في القرآن حتى تفرغ منه، لا ترى غير صورة واحدة من الكمال، وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التركيب ومواضع التأليف، وألوان التصوير وأغراض الكلام كأنها تفضي إليك جملة واحدة.(1) (

]وجه الإعجاز عند الرافعي[

انطلق الرافعي كما رأينا في حديثه عن الإعجاز من الحروف وأصواتها، ثم من الحركة الصرفية واللغوية للألفاظ القرآنية المشتملة على تلك الحروف، حتى ليمكن القول :إن عماد حديثه عن إعجاز النظم الموسيقى يعتمد بالدرجة الأولى على الألفاظ وعلى الجانب الصوتي منها على وجه الخصوص.

يقول الرافعي) :ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها لرأيت حركتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، فيهيّئ بعضها لبعض، ويساند بعضها بعضا، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقى، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة لسبب من أسباب الثقل أيا كان، فلا تعذب ولا تساغ وربما كانت أوكس النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنا عجيبا، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقا في اللسان واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقى، حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأورقه، وجاءت متمكنة في موضعها وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة.(

ثم يضرب لذلك أمثلة يوضح بها ما ذهب إليه، فيقول) :من ذلك لفظة (النّذر (جمع نذير، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معا، فضلا عن جشأة هذا الحرف ونبوّه عن اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام، فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه، ولكنه جاء في القرآن على العكس، وانتفى من طبيعته في قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ] (36) القمر: 36 .[فتأمل هذا التركيب وأنعم ثم أنعم على تأمله، وتذوّق مواقع الحروف وأجر حركاتها في حسن السمع وتأمل مواضع

القلقلة في دال) ولقد (وفي الطاء من) بطشتنا (وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو) تماروا (مع الفصل بالمد كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة، ثم ردد نظرك في الراء من) تماروا (فإنها ما جاءت إلّا مساندة لراء) النذر (حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها. فلا تجفو عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم اعجب لهذه الغنّة التي سبقت الطاء في نون) أنذرهم (وفي ميمها وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في) النذر(... (

ثم يعقب على هذه الآية بقوله) :وما من حرف أو حركة في الآية إلا وأنت مصيب من كل ذلك عجبا في موقعه والقصد به، حتى ما تشك أن الجهة واحدة في نظم الجملة والكلمة والحرف والحركة، ليس منها إلا ما يشبه في الرأي أن يكون قد تقدم في النظر وأحكمته الرويّة وراضه اللسان، وليس منها إلا متخير مقصود إليه من بين الكلم ومن بين الحروف ومن بين الحركات.(1) (

- 2]رأي الدكتور محمد عبد الله الدراز[

من الذين تحدثوا عن الإعجاز الدكتور محمد عبد الله الدراز في كتابه» النبا العظيم «الذي ألفه سنة: 1933 م.

وذكر فيه ثلاثة أوجه من الإعجاز:

- + التشكيل

- 1الإعجاز اللغوي.

- 2الإعجاز العلمي.

- 3الإعجاز التشريعي.

وقد فصل في الوجه الأول، لأنه هو الذي وقع من جهته التحدّي بالقرآن. ويتجلى ذلك في ناحيتين.

الناحية الأولى :الجمال التوقيعي في توزيع حركاته وسكناته ومدّاته وغنّاته ويقول في ذلك) :دع القارئ المجوّد يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله، نازلا بنفسه على هدي القرآن، وليس نازلا بالقرآن على هدي نفسه، ثم انتبذ منه مكانا قصيا لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومدّاتها وغنّاتها واتصالاتها وسكتاتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جرّدت تجريدا، وأرسلت ساذجة في الهواء، فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جرّد هذا التجريد، وجوّد هذا التجويد.(

)وإيقاع الشعر وغيره متقاربة ولذلك لا يلبث السمع أن يمجها والطبع أن يملّها، بينما وأنت من القرآن أبدا في لحن متنوّع متجدد، تنتقل فيه بين (أسباب وأوتاد وفواصل (على أوضاع مختلفة، يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم، بل لا تفتا تطلب منه المزيد.(1) (

والناحية الثانية :الجمال التنسيقي في رصف الحروف وتأليفها من مجموعات مؤتلفة مختلفة .يقول) :فإذا ما اقتربت بآذانك قليلا قليلا، فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة، فاجأتك منه لذة أخرى في

نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها. هذا ينقر، وذلك يصفر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النفس وآخر يحتبس عنده النفس وهلم جرّا.(1) (..

من هذه الخصوصية والتي قبلها تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني، وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللئالئ النفيسة، فإنه جلت قدرته قد أجرى سنته في نظام هذا العالم أن يغشي جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها ... ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبدا في أفواه الناس وآذانهم ما دامت فيهم حاسة تذوق وحاسة تسمع...

ثم يتحدث الدراز عن الجانب المعنوي وجماله ويسميه اللب الداخلي للصدفة الجميلة وهذه الناحية هي أداة لتصوير المعاني ونقلها من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها، وهي أعظم الناحيتين أثرا في الإعجاز اللغوي، إذ اللغات تتفاضل من حيث هي بيان، أكثر من تفاضلها من حيث هي أجراس وأنغام.

ثم يتحدث الدراز عن خصائص القرآن البيانية ويرتّبها على أربعة مراتب:

- **1القرآن في قطعة قطعة منه.**
- **2القرآن في سورة سورة منه.**
- **3القرآن فيما بين بعض السور وبعض.**
- **4القرآن في جملته.**

ثم ساق أمثلة مستفيضة لإبراز الجانب البياني في كل ذلك بما يشفي الغليل ويقنع الفكر ويطمئن القلب.

- **3]سيد قطب ورأيه في إعجاز القرآن[**

ولد سيد قطب في قرية من قرى محافظة أسيوط عام 1906 م.

اتصل بالأديب عبّاس محمود العقاد في بداية تحصيله العلمي وتأثر به، ثم التزم مع الاتجاه الإسلامي. واستشهد عام 1966 م.

له مؤلفات عديدة في الأدب والنقد، وعن الإسلام عامة، إلا أن الكتب التي تحدد آخر مراحل تطور فكره هي» :هذا الدين «و» المستقبل لهذا الدين «و» في ظلال القرآن«، و» معالم في الطريق.«

كتب سيد قطب كتابات كثيرة حول القرآن ونظمه وأسلوبه والوجوه الكثيرة التي تدل على ربانية مصدره، وذلك في الكتب الثلاثة التي ألفها حول القرآن الكريم» :التصوير الفني في القرآن» – «مشاهد القيامة في القرآن» – «في ظلال القرآن.«

إلا أن الجانب الذي أبرزه في كتاباته هو جانب التصوير الفني في القرآن وارتبط اسم التصوير الفني في القرآن باسم سيد قطب. وهو أول من أبرز الجوانب الجمالية الفنية في أسلوب القرآن الكريم من هذه الناحية، ونقتطف بعض المقاطع وهو يشرح نظريته هذه:

يقسم سيد قطب مراحل تذوق الجمال القرآني إلى ثلاث مراحل:

]المرحلة الأولى[

مرحلة التذوق الفطري:

فالعرب الذين تلقوا القرآن الكريم، تذوقوا بحاستهم الفنية جماله الفني الساحر وأحسّوا تأثيره المباشر على قلوبهم وتحسسوا سلطانه العجيب على نفوسهم، والكافرون منهم الذين شنوا ضده حربا دعائية ضخمة، وقالوا عنه :إنه شعر وإنه سحر، لكنهم اعترفوا بالعجز البالغ عن معارضته، وأدركوا إعجازه البياني الرفيع، وتذوقوا جماله الفني وتحسسوه شبه مسحورين.

وإذا نظرنا في الروايات التي سجّلت تأثير القرآن في قلوب المؤمنين والكافرين والكلمات التي تحدثوا بها عن ما يحسون من أثر القرآن فإننا لا نجد فيها تعليلا فكريا لهذا الأثر.

فعمر بن الخطاب يقول عن القرآن) ما أحسن هذا الكلام وأكرمه (!ويقول عن تأثير القرآن في نفسه) فلما سمعت القرآن رقّ له قلبي، فبكيت ودخلني الإسلام.(1) (

وكذلك قول الوليد بن المغيرة عند ما تحدث عن مشاعره وأحاسيسه عن القرآن في لحظة صدق مع نفسه قال) :والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، ما يقول هذا بشر.(2) (

وزعماء قريش يجدون شيئا خفيا يسيّرهم كل ليلة ليستمعوا قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يستطيعون الامتناع عن السير إليه مع تعاهدهم عليه ولا يملكون مخالفة هذا الدافع الخفي.(3)

هذه المرحلة الأولى لتذوق الجمال الفني القرآني، هي مرحلة التذوق الفطري المباشر، يجد فيها الإنسان مس القرآن، ويلمس تأثيره ويبهر به، ويستسلم له، ولا يحاول أن يبحث عن سر ما يلمس، وتعليل ما يجد، لأنه في شغل عن بيان كل هذا:

]المرحلة الثانية[

مرحلة إدراك مواضع الجمال المتفرقة:

وتبدأ هذه المرحلة في منتصف القرن الثاني للهجرة عند ما أقبل العلماء على القرآن الكريم من مفسرين وأدباء ومتكلمين.

إلا أن نظراتهم اقتصرت على نواح جزئية حيث نظروا في الآية كوحدة منفصلة، وراحوا يستخرجون منها مباحث في اللغة والأدب والبلاغة والأصول والفقه والتشريع والعقيدة وغيرها، وألفوا مؤلفات كثيرة ضخمة في التفسير، وملئوها بمباحث في النحو والبلاغة ... كما ألّفت كتب عديدة في علوم القرآن ضمنت مباحث متنوعة مثل قصص القرآن وبديع القرآن وتشبيهات القرآن ومعاني القرآن وإعجاز القرآن.

إلا أن القليل من المفسرين والبلاغيين وفّقوا في بعض الأحيان إلى إدراك الخصائص العامة للجمال الفني في القرآن الكريم ووقفوا عند نظرات جزئية، وأدركوا فيها بعض مواضع الجمال المتفرقة.

وسبب عدم إدراكهم للخصائص العامة هو وقوفهم عند حدود عقلية النقد العربي القديمة، تلك العقلية الجزئية التي تتناول كل نص على حدة فتحلّله وتبرز الجمال الفني فيه، إلى الحد الذي تستطيع- دون أن تتجاوز هذا- إلى إدراك الخصائص العامة في العمل الفني كله:(1)

]المرحلة الثالثة[

مرحلة إدراك الخصائص العامة:

وهي المرحلة التي جاءت متأخرة، ولم تتم إلا في العصر الحديث، حيث بدأت الكتابة في الخصائص العامة للجمال الفني في القرآن، باكتشاف القاعدة العامة والطريقة الموحدة في التعبير القرآني.

وتناول سيد قطب جانبا هاما من القواعد الأساسية في أسلوب القرآن الكريم في كتاب» التصوير الفني في القرآن «فكان رائدا من رواد هذه المرحلة في إبراز قاعدة أساسية عامة من الأساليب البيانية للقرآن الكريم.

يقول سيد قطب في ذلك) :إن حقيقة جديدة تبرز لي، إن الصور في القرآن ليست جزءا منه يختلف عن سائره، إن التصوير هو قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل، القاعدة الأساسية المتبعة في جميع الأغراض– فيما عدا غرض التشريع بطبيعة الحال– فليس البحث إذن عن صور تجمع وترتب، ولكن عن قاعدة تكشف وتبرز، ذلك توفيق لم أكن أتطلّع إليه، حتى التقيت به.(1) (

ويقول) :التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسّة المتخيّلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حيّ، وإذا الطبيعة البشرية مجسّمة مرئية. وأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها عناصر التخيل فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأول الذي وقعت فيه أو ستقع، حيث تتوالى المناظر وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ومثل يضرب، ويتخيل أنه منظر يعرض وحادث يقع ... إنها الحياة هنا وليست حكاية الحياة.(

أمثلة على نظرية سيد قطب في التصوير الفني:

– 1قوله تعالى :إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ] الملك: 7 – 8) .[فهي مخلوقة حي لها صفات الأحياء من البشر فها هي تكظم غيظها فتكاد تميز من الغيظ وتتمزق منه فترتفع أنفاسها من كظمها له فتفور ويسمع السامعون لها شهيقا مرعبا فظيعا.(2) (

– 2وفي قوله تعالى :وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ] الحج: 5) .[والهمود درجة بين الحياة والموت فإذا نزل عليها الماء (اهتزت وربت (وهي حركة عجيبة سجلها القرآن، قبل أن تسجّلها الملاحظة العملية بمئات الأعوام فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهي تتشرب الماء وتنتفخ فتربو.(1) (

– 3وفي قوله تعالى :وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ] (39) النور: 39) [تحوّلت أعمالهم المعنوية هنا إلى سراب مجسم بقيعة يراه الرائي ماء.(

– 4وفي قوله تعالى :مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ] العنكبوت: 41.[

)الولاية لغير الله– وهي أمر معنوي مجرد– صارت هنا صورة منفرة محقّرة محسوسة مجسمة، بيت عنكبوت ضئيل هزيل واهن.(

بهذه الدراسات القيّمة يكون سيد قطب قد أضاف بعدا جديدا إلى مفهوم إعجاز النظم القرآني من الناحية البيانية.

ويبقى كتاب الله الخالد ومعجزة رسوله الباقية المعين الثرّ والنبع المتدفق للمعارف الراقية والدراسات المتجددة ولن تنقضي عجائبه ولن يحيط بأسراره مخلوق مهما أوتي من العلم والحكمة.

*فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ (78) لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ] (80) الواقعة: 75 – 80.[

عنوان المحاضرة – حقيقة القول بالصرفة .

.The title of the lecture - the fact of saying pure

تعريف الصرفة :

الصّرف والصّرفة مصدر (صرف) ، وقد أطال اللّغويون في توضيح معناها وبيان اشتقاقاتها ، لكن حقيقة المادّة تفيد معنى واحدا في معظمها ، ألا وهو ردّ العزيمة.

قال الخليل في العين : الصّرف : أن تصرف إنسانا على وجه يريده إلى مصرف غير ذلك.

وقال الراغب في مفرداته : الصّرف : ردّ الشيء من حالة إلى حالة ، أو إبداله بغيره .

وقال ابن منظور في لسان العرب : الصّرف : ردّ الشيء عن وجهه ، أن تصرف إنسانا عن وجه يريده إلى مصرف غير ذلك.

أمّا اصطلاح الصّرف والصّرفة عند المتكلّمين ، فمعناه أنّ الله تعالى سلب دواعيهم إلى المعارضة ، مع أنّ أسباب توفّر الدواعي في حقّهم حاصلة.

- معنى القول بالصرفة : اهتمّ المسلمون من الصدر الأول بالبحث عن وجه إعجاز القرآن، وكان الرأي السائد بينهم في إعجازه هو كونه في الطبقة العليا من الفصاحة، والدرجة القُصْوى من البلاغة، مع ماله من النَّظم الفريد، والأسلوب البديع. وهذه الأُمور الأربعة أَضْفَتْ على القرآن وصف الإعجاز حتى صار معجزة القرون والأعصار. ويمكن تبيين وتفسير كلام القائلين بالصّرفة بأنّ القرآن الكريم يتكوّن من مجموعة من الكلمات والحروف قد سطّرت ونظمت بنظم خاص. وهذا النظم مهما علا شأنه وفارق سائر نظوم الكلام ، فإنّه بنفسه لا يمكن أن يكون معجزا بحيث يعجز من تحدّي به عن الإتيان بما يقاربه. نعم ، إنّه يعدّ معجزة ومعجزا حينما يسلب الله سبحانه وتعالى دواعي الكفّار وغيرهم عن معارضته ، فإعجاز نصّ القرآن لا لنفسه وذاته ، وإنّما لسبب خارجيّ طرأ على بعض الناس ، وهم الذين قصدوا المعارضة وحاولوا إتيان ما يقاربه في النظم ، ولو لا ذلك لاستطاعوا مجاراة سور القرآن وآياته والإتيان بما يقاربهما في الشّبه. وهذا الطارئ الخارجيّ ، وتثبيط عزائم القاصدين للمجاراة ، وقبول التّحدي ، هو في نفسه إعجاز خارق للعادة. وذهب جماعة إلى أنّ هذا الرأي يعدّ أخطر وأجرأ ما قيل في هذا المجال.

ابرز القائلين بالصرفة :

- **النظام : هو إبراهيم بن سيار بن هانئ أبو إسحاق مولى آل الحارث بن عباد الصبعي البصري المتكلم , ابن أخت أبي الهذيل العلاف شيخ المعتزلة المعروف بالنظام بالظاء المعجمة المشددة،**

قالت المعتزلة: إنما لقب بذلك لحسن كلامه نظماً ونثراً، وقال غيرهم : إنما سمي بذلك لأنه كان ينظم الخرز بسوق البصرة ويبيعها. أوّل من جهر بنظرية الصرفة وأشهر من قال بها هو النظّام حتى صارت لا تذكر إلاّ مقرونة باسمه ولا تعرف إلاّ من خلاله . حيث يقوم رأيه على أساس أنّ العرب لم يقدروا على الإتيان بمثل القرآن، لا لإعجازه بحدّ ذاته، وأنّ القرآن بلغ في فرط الفصاحة والبلاغة، وروعة النظم وبداعة الأُسلوب شأواً لا تبلغه الطاقة البشرية، بل لأجل أنّه سبحانه صرَفَ بُلَغَاء العرب وفصحاءَهم عن المعارضة بطريق من الطُرق الآتي ذكرها.

قال الجاحظ عن عظم علمه وسعة ثقافته :"ما رأيت أحدا أعلم في الفقه والكلام من النظام" .

– واختاره السيد المرتضى (ت 355 . م 436 هـ) في رسالته الخاصة بهذا الموضوع الّتي أسماها بـ"الموضح عن جهة إعجاز القرآن" فقال فيه : "إنّه تعالى سلب العرب العلوم الّتي كانت تتأتّى منهم بها الفصاحة الّتي هي مثل القرآن متى راموا المعارضة، ولو لم يسلبهم ذلك لكان يتأتى منهم."

- **وابن سنان الخفاجي (م 464 هـ) في كتابه "سِرّ الفصاحة."حيث ذكر فيه "إذا عدنا إلى التحقيق وجدنا إعجاز القرآن، صرف العرب عن معارضته، بأن سلبوا العلوم الّتي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك."**

ثم قال: "إنّ الصحيح أنّ إعجاز القرآن هو صرف العرب عن معارضته، وأنّ فصاحته كانت في مقدورهم لولا الصرف."

- **وبسط ابن حزم الظاهري (م 548 هـ) الكلام في إعجاز القرآن، وذكر لإعجازه خمسة وجوه وردّها، وممّا قاله في معرض كلامه عن هذا الموضوع : "فإنّها معجزة لا يقدر على المجيء بمثلها أبداً، لأنّ الله تعالى حال بين الناس وذلك. "**

مما تقدم يتبين لنا ان مذاهب القائلين بالصرفة تتلخص فيما يأتي :

- **1- صَرْف دواعيهم وهممهم عن القيام بالمعارضة، فكلّما هموا بها وجدوا في أنفسهم صارفاً ودافعاً يصرفهم عن منازلته في حلبة المعارضة. ولم يكن ذلك لعدم قدرتهم على الإنصداع لهذا الأمر، بل إنّ المقتضي فيهم كان تامّاً غير أنّ الدواعي والهمم صارت مصروفة عن الإلتفات إلى هذا الأمر، بصرف الله سبحانه قلوبهم عنه، ولولا ذلك لأتوا بمثله.**

2- سَلْبُهُمْ سبحانه العلومَ الّتي كانت العرب مالكة لها، ومتجهزة بها، وكانت كافية في مقابلة القرآن. ولولا هذا السلب وكان وضع العرب حال البعثة كوضعهم بعده الأتوا بمثله.

الرد على القول بالصرفة :

1- **القول بالصرفة يقتضي أنّ الإعجاز فيها وفي قدرة الله الخارقة لا في القرآن الكريم الذي يفقد بذلك كلّ فضيلة وتميز على غيره من الكلام وهذا مخالف لنصوص الكتاب والسنة التي تثني على القرآن الكريم وتؤكد على خصوصيته وتميزه عن سائر الكلام بما في ذلك سنة رسول الله ﷺ والحديث القدسي الشريف ....وإلى هذا أشار الباقلاني في إعجاز القرآن بقوله : (إنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، لم يكن الكلام معجزا ، وإنما يكون المنع هو المعجز ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره) .**

2- **لو عرض للعرب صارف منعهم من معارضة القرآن كما يدعيه القائلون بالصرفة لنقل وأثِر عنهم ذلك لوجود الدواعي فقد كانوا يجهدون أنفسهم ويبالغون في البحث عن شيء يعللون به رفضهم لدعوة النبيّ ﷺ بالكذب والبهتان حتى , وما أيسر وأسهل أن يقولوا إننا قادرون على الإتيان بمثل هذا القرآن ولكن طرأ لنا كذا أو منعنا كذا أو أنّ سحر محمد حرمنا من بياننا وبلاغتنا ولكن كلّ ذلك لم ينقل لا لشيء إلاّ لأنه لم يقع أصلا والله أعلم ...يقول يحيى بن حمزة العلوي في الطراز (إنّهم لو صُرفوا عن المعارضة مع تمكنهم منها، لوجب أن يَعْلَموا ذلك من أنفسهم بالضرورة، وأنْ يُميزوا بين أوقات المنع والتخلية. ولو علموا ذلك، لوجب أن يتذاكروا في حال هذا المعجز على جهة التعجّب. ولو تذاكروه، لظهر وانتشر على حدّ التواتر. فلمّا لم يكن ذلك، دّلّ على بطلان مذهبهم في الصرفة) .**

3- **القول بالصرفة يقتضي أنّ بلاغة العرب تعطّلت أو على الأقل تراجعت بعد وقوع التحدي والواقع خلاف ذلك فإنّ شعراءهم هم هم وخطباءهم كذلك وكلامهم الفصيح وأسلوبهم البديع والألفاظ المنمقة والمعاني الجليلة السامية بقيت هي هي لم يتغير من ذلك كلّه شيء ... ممّا يؤكد أنّ العجز واقع في أنفسهم وقدرتهم لمزية هذا القرآن وعلوّ شأنه وإعجازه في بلاغته ونظمه لا غير.**

4- **إذا كان العرب صرفوا عن الإتيان بمثل القرآن الكريم بعد نزوله ووقوع التحدي فما بالنا لا نجد في كلامهم قبل وقوع التحدي ما يشبهه أو يقاربه في بلاغته وبيانه ؟ يقول الإمام الباقلاني : (إننا لو سلمنا أن العرب المعاصرين للبعثة قد صرفوا كما يزعمون ، لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة ، وحسن النظم ، وعجيب الرصف ، فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله) .**

5- **قوله تعالى ﴿ :قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾] سورة الإسراء – الآية 88]، فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو**

سُلِبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم فإنه يصبح بمنزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى بالأمر الكبير الذي يُحتفل بذكره .

6- تعظيم العرب لبلاغة القرآن وإجلالهم وإكبارهم له رغم معارضته وكره أحكامه وحدوده وما جاء به ...والقصص في سيرته العطرة التي تثبت ذلك كثيرة فمنها ما رواه الامام محمد بن اسحق في كتاب السيرة (أن –عتبة بن ربيعة– كان سيدا في قومه ، قال يوما وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله – ﷺ – جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ..ويكف عنا..؟فقالوا: بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إليه ، فقال : يا ابن أخي ، إنك منا حيث علمت من السطة(أي : الشرف) في العشيرة ، والكمال في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أ مورا ، فتنظر فيها لعلك تقبل مني بعضها . فقال رسول الله : – ﷺ – قل يا أبا الوليد أسمع ، قال : يا ابن أخي ، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا : جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تريد شرفا : سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا: ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ، حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله – ﷺ – يستمع إليه قال : أفرغت يا أبا الوليد ..؟ قال : نعم ، قال: فاسمع مني ، قال : أفعل ، قال الرسول] : – ﷺ – بسم الله الرحمن الرحيم . حم. تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون] ثم مضى رسول الله – ﷺ – يقرأ هذه السورة وعتبة ينصت إليه ، وهو ملق يديه خلف ظهره ، معتمدا عليهما ، حتى انتهى الرسول إلى السجدة ، ثم قال : (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك) ، فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس اليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ..؟ قال : ورائي أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش : أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه

ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : قد سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم .) وقصة إسلام عمر والطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنهما وتأثر خالد وعمرو بن العاص بالقرآن الكريم كلّ ذلك معروف مشهور في كتب السيرة يقول يحيى بن حمزة العلوي (749هـ) : (لو كان الوجه في إعجازه هو الصرفة – كما زعموه – ، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن ، فلما ظهر منهم التعجب لبلاغته ، وحسن فصاحته – كما أثر عن الوليد بن المغيرة – حيث قال : إن أعلاه لمورق ، وإن أسفله لمعذق ، وإن له لطلاوة ، وإن عليه لحلاوة ، فإن من المعلوم من حال كل بليغ وفصيح سمع القرآن يتلى عليه ، فإنه يدهش عقله ، ويحير لبه ، وما ذاك إلا لما قرع مسامعهم من لطيف التأليف ، وحسن مواقع التصريف في كل موعظة ، وحكاية كل قصة ، فلو كان ما زعموه من الصرفة، لكان العجب من غير ذلك ، فلو كان كما زعمه أهل الصرفة ، لم يكن للتعجب من فصاحته وجه ، فلما علمنا بالضرورة إعجابهم بالبلاغة ، دل على فساد هذه المقالة .

هذا وقد هبّ العلماء جميعاً قديماً وحديثاً يفنّدون مزاعم القول بالصرفة ، إمّا برهاناً عقلياً أو خطابةً وجدلاً بالتي هي أحسن ، في دلائل ومسائل نعرض أهمّها ونقتصر عليها ؛ لأنّ فيها الكفاية والوفاء.

وقبل أن نرد التفصيل نقدّم خلاصةً من تلك الردود والدلائل:

أوّلاً : مخالفة هذا المذهب لظاهرة التحدّي القائمة على المباهاة ، ولا مباهاة على صنيعٍ لا ميزة فيه سوى سلطة صانعه على منع الآخرين قهريّاً من مماثلته ! كمَن باهى بوضع يده على رأسه وتحدّى الآخرينَ أن يصنعوا بمثله ، لكنّهم لما أرادوا مماثلة أخذ بيدهم ومنعهم من ذلك منعاً ، أفهل يعدّ ذلك من المباهاة ؟!

أو كمَن استهدف غرضاً دقيقاً مباهياً ، لكنّه سلب صاحبه بندقته ، ولولاه لتمكّن من مماثلته ، ليس هذا تحدّياً ولا مباهاةً البتّة.

والخلاصة : أنّ المباهاة بالصنيع إنّما تتعقّل إذا كان الصنيع ذاته مشتملاً على مزية خارقة وبديعة عجيبة ، ليس إلاّ.

ثانياً : لكان ينبغي أن يتعجّبوا من أنفسهم هذا التحوّل المفاجئ لهم ، بالأمس كانوا قادرينَ واليوم أصبحوا عاجزينَ ، فلم يكن موضع إعجاب بالقرآن الكريم ، ولا أن تبهرهم روعته ، في بديع نظمه وعجيب رصفه.

وأنّ شهادتهم ـ برشاقة أُسلوبه وأناقة سبكه وتأليفه ، فضلاً عن فخامة معانيه ورصانة مبانيه ـ لأعظمُ دليلٍ على سموٍّ وشموخٍ لمسوه في جوهر القرآن ووجدوه في ذاته ، لا شيء سواه.

ثالثاً : لا مباهاة مع مسلوب القدرة ، هو والميّت سواء ، ولا تحدّي مع الأموات ، قلّوا أم كثروا ، فإنّ كثرتهم لا تجدي شيئاً بعد كونه من ضمّ الحجر إلى المدر ، ولا حراك في الجماد.

ومِن ثَمّ فمن المُستغرب ما زَعمه ابن حزم من قياس ما هنا بمسألة الجبر وسلب الاختيار .! فقد ذهب عن أن لا علاقة بين المسألتينِ ولا تناسب بين المفهومينِ : المباهاة وسلب الاختيار!

أمّا السيّد وأصحابه ـ وكذا النظّام في احتمال ـ فلم ينكروا اعتلاء جانب القرآن بما فاق سائر الكلام ؛ إمّا في فصاحته البالغة كما ذكره السيّد ، أو لاشتماله على الأُمور الغيبية كما ذكره النظّام ، وإنّما عجز القوم عن مماثلته لفقدهم العلوم التي كان يمكنهم بذلك مقابلته ، ولعلّ البشرية أجمع تعوزها تلك القدرة المحيطة على جمع الامتيازات المشتمل عليها القرآن الكريم.

عنوان المحاضرة - إعجاز القرآن عند مفسري أهل السنّة والجماعة :

The title of the lecture - Miracles of the Qur'an among the interpreters of the Sunnis and the community:

تعرض المفسرون لذكر وجوه الإعجاز في القرآن الكريم في تفاسيرهم بإحدى طريقتين:

أ- التحدث عن إعجاز القرآن عند تفسيرهم لآيات التحدي في سورة البقرة ويونس وهود والإسراء. وحيثما ذكرت آيات جامعة لمعان غزيرة وبأسلوب فيه إيجاز، فقد تعرضوا كثيرا لبيان وجه البلاغة والفصاحة فيها، وإبراز النكات البلاغية. وذلك كأسلوب تطبيقي لإبراز الإعجاز البياني في القرآن الكريم وهم في كل ذلك بين مطنب في عرضها وبين مقتصد. من هؤلاء أبو حيان في» البحر المحيط«، وأبو السعود في» إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم«، والشوكاني في» فتح القدير.«

ب- وخصص بعض المفسرين في مقدماتهم لكتبهم في التفسير مقدمات تتعلق بموضوعات في علوم القرآن ومن هذه الموضوعات بيان إعجاز القرآن.

فذكروا أقوال العلماء في وجه الإعجاز وضربوا بعض الأمثلة على ذلك. من هؤلاء المفسرين ابن عطية في تفسيره» المحرر الوجيز«، والقرطبي في تفسيره» الجامع لأحكام القرآن«، والألوسي في تفسيره» روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني.«

وسنختار نموذجا من النوع الثاني ما كتبه القرطبي في مقدمة تفسيره تحت عنوان) باب ذكر نكت في إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها.(

[وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول]

ليس المقصود بالمعجزة إثبات العجز للخلق لذاته من غير ترتّب مطلب على هذا العجز، بل المقصود لازم هذا العجز. وهو إقامة الحجة على أن هذا الادّعاء حق وأن الرسول الذي جاء به رسول صدق. فإعجاز القرآن الناس

أن يأتوا بمثله يراد من وراء ذلك إقامة الحجة على الخلق كافة، إن هذا الكلام كلام رب العالمين، وإن الرسول الذي أرسل به يبلّغ عن ربه، وإن الأوامر والنواهي التي يحملها هي سبيل النجاة.

وكذلك الشأن في جميع معجزات الأنبياء السابقين، هو إبراز صدق من ظهرت على يديه، ليؤمن بهم الناس ويتبعوهم، وذلك لأن بعثة النبي لا تصح من غير أن يؤتى دلالة ويؤيّد بآية، لأنه لا يتميز من الكاذب بصورته، ولا بقول نفسه ولا بشيء آخر، سوى البرهان الذي يظهر على يديه فيستدلّ به على صدقه، وأنه مبلّغ عن الله سبحانه وتعالى (1) وإصدار الله لها عند ذلك يعدّ تأييدا منه له في تلك الدعوى، ومن المحال

على الله سبحانه وتعالى أن يؤيد الكاذب. فإن تأييد الكاذب تصديق له، وتصديق الكاذب كذب، وهو محال على الله سبحانه وتعالى، فمتى ظهرت المعجزة وهي مما لا يقدر عليه البشر، وقارن ظهورها دعوى النبوة، علم بالضرورة أن الله ما أظهرها إلا تصديقا لمن ظهرت على يديه، وإن كان هذا العلم قد يقارنه الإنكار مكابرة(2) ، ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79) وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ] (80) آل عمران: 79، 80.]

عنوان المحاضرة – [معجزات الأنبياء السابقين ومعجزات خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين]

Lecture Title - [The Miracles of the Former Prophets and the Miracles of their Seal, May God's prayers and peace be upon them all]

[معجزات الأنبياء السابقين ومعجزات خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين]

ذكرنا في السابق أن المعجزة قرينة الرسالة، وذلك لأن الرسول لا يتميز عن سائر الناس بجسمه ولا بكلامه، فكان لا بدّ من أمارة تدل على صدقه في سفارته هذه بين الخالق سبحانه وتعالى وبين خلقه.

وقد يعطى الرسول الآية) المعجزة (عند تبليغه الوحي أول مرة من غير سؤال وتطلّع، كما حدث لموسى عليه السلام :فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها وَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (8) يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ] (12) النمل: 8 – 12.]

وقد يعطاها الرسول بعد تكذيب القوم له ومطالبتهم بالآية، كما حدث لأغلب الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه :قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ

قَوْلِكَ وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ

] (53)هود: 53[، قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154) قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ(155) ...

]الشعراء: 153 – 159.[

وعلى كلتا الحالتين فإنها هبة من الله سبحانه لرسله، فهو المعطي

وهو الذي يختار نوعها وزمانها ومكانها، ودور الرسول فيها أنها تتجلى على يده. وليس بالضرورة أن تكون نفس الخارقة التي طلبها القوم، فإن مدلول الخارقة والإيمان والتصديق لصدق الرسول يتحقق بوجود المعجزة مطلقا ولا يتوقّف على نوع خاص من المعجزات .بل إن سنّة الله تقضي بتعجيل عذاب الاستئصال للذين لم يذعنوا للآية الخاصة التي سألوها :وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ] (8) الأنعام: 8.[

]سنة الله سبحانه وتعالى في معجزات الأنبياء[

باستعراض معجزات الأنبياء السابقين ومعجزات خاتمهم عليهم الصلاة والسلام أجمعين نلاحظ أن المعجزة تختار من بيئة القوم الذين يرسل الرسول إليهم ومن نوع المشهور في عصرهم مما يتلاءم مع مستواهم الفكري ورقيّهم الحضاري، لتكون الحجة أقوى.

أ– الأنبياء الذين عاشوا في البلاد العربية كانت معجزاتهم مناسبة لبيئة العرب الصحراوية، فمعجزة صالح عليه السلام كانت ناقة غريبة المنشأ والمولد بين نوق أهل البادية قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154) قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155) وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ] (156) الشعراء:

153 – 156].

ب– وكان السحر منتشرا بين المصريين عامتهم وخاصتهم استرهبهم فرعون وجنوده به، فجاءت معجزات موسى عليه السلام من جنس المشهور بين قومه فمن معجزاته الرئيسية:

العصا :فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ] (32) الشعراء: 32.[

واليد :وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ] (12) النمل: 12.[

فظاهر هاتين المعجزتين لا يختلف عما كان متداولا بين سحرة .

فرعون(1) ، ولكن أهل الدراية بالسحر كانوا يميّزون بين السحر، وبين ما هو خارج قوى السحرة، بل من صنع الله، لذا كانوا أول المؤمنين به.

ج- وبعد عصر موسى عليه السلام انتشرت الفلسفة الأيونية وهي أساس الفلسفة اليونانية فيما بعد، وكانت تقوم على الأخذ بالأسباب والمسبّبات وتولّد المعلول من العلة في انتظام قائم لا يتخلف، فجاءت معجزات أنبياء بني إسرائيل في هذا العصر خارقة للأسباب والمسبّبات، لتثبت أن الكون كله بإرادة مريد مختار، لا يفعل إلا ما يريد ولا يصدر عنه بغير إرادته الثابتة شيء.(2)

فمعجزات سليمان عليه السلام مثلا جاءت مناهضة لتلك النظرية التي تقول إن المخلوقات نشأت عن الموجد الأول نشوء العلة من المعلول، فكانت حياة نبي الله سليمان في ملكه تجري على هدم هذا النظر، فمن معجزاته:

-تسخير الجن والطير له.

-تعليمه منطق الطير والحيوان وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ (19) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ] (20) ... النمل: 16 - 22.]

-تسخير الريح له :وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ] سبأ: 12.[

د- وفي عصر اليونان ازدهر الطب والفلسفة المبنية على الأسباب أيضا، فكانت معجزات عيسى عليه السلام من جنس ما اشتهر في هذا العصر:

-فكانت ولادته إبطالا صارخا لهذه النظرية، فإن المعتاد في حياة الكائنات الحية أن المولود يولد من أبوين، فجاء عيسى عليه السلام من غير أب فكان ذلك خرقا للأسباب

الطبيعية الجارية ... فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا (17) قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا (19) قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكانَ أَمْراً مَقْضِيًّا * (21) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا] (22) مريم: 17 – 22.[

وتحدّثه في المهد حديث الحكماء ... قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا (32) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا] (33) مريم: 29 – 33.[

–وتصويره من الطين كهيئة الطير ثم نفخه فيه فيكون طيرا بإذن الله، وإحياؤه الموتى بإذن الله، وإبراؤه الأكمة والأبرص بإذن الله ... وَرَسُولًا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] (49) آل عمران: 49.[

هـ– وقبل بعثة خاتم النبيين بلغت الفصاحة والبلاغة وفنون القول شأوا بعيدا، وأخذت الكلمة مكانا في نفوس العرب من التقديس والتعظيم لم يبلغه شيء آخر، مما حدا بهم أن يعلّقوا المعلّقات السبع في جوف الكعبة، وإذا علمنا أن الكعبة كانت تعتبر أقدس مكان عند العرب في جاهليتهم أدركنا مكانة الكلمة في نفوسهم.

انت القصيدة تفعل فعلها في القبائل وربما نزلت منزلة قبيلة إلى الحضيض لأن شاعرا أقذع في هجائها. وربما ارتفعت مكانتها لأن شاعرا قد أجاد في تمجيد مآثرها) .وحادث بني أنف الناقة(1) (، وما جرى بين الحطيئة) والزّبرقان (2) (يدلنا على مدى ترك الكلمة أثرا في نفوس القوم..

فكانت معجزة خاتم النبيين في الكلمة والقول.

والحكمة الإلهية في اختيار المعجزة من جنس ما اشتهر بين القوم هي أن الإنسان إذا أوتي من قبل ما يعتبره مفخرته ومجال إجادته واعتزازه تكون الحجة عليه أقوى والمعجز أكثر فعلا وأثرا.

ولتكون معجزة النبي الخاتم أشدّ لمعانا وأسطع برهانا فقد جعل الله معجزته كتابا متلوّا معجزا، وهو الإنسان الأمي الذي لم يخطّ بيده كتابا ولم يتلقّ من أحد من البشر معرفة.

]مزايا معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم العظمى) القرآن الكريم[(

لقد جعل الله سبحانه وتعالى معجزة رسوله صلى الله عليه وسلم من نوع خاص، إلى جانب تحقيق سنته في معجزات الأنبياء. جعلها القرآن الكريم لحكم جليلة.

ندرك من هذه الحكم ما يلي:

أ –مواءمة طبيعة الرسالة :لقد كان الرسول في السابق يرسل إلى قوم مخصوصين أو إلى قبيلة خاصة ولفترة زمنية محددة أحيانا، فكان التحديد زمانا ومكانا وقوما يحدّد مهمة الرسول .أما الرسالة الخاتمة فقد امتازت عن الرسالات السابقة بشمولها وعمومها وعالميتها زمانا ومكانا ومكلّفين يقول تعالى :قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِماتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ] (158) الأعراف:

.. » [158وكان النبي يرسل إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود.(1) «

فكانت معجزات الأنبياء ملائمة لطبيعة رسالاتهم، وكانت المعجزة تنتهي بوفاة الرسول ولا يبقى إلا الحديث عنها والأخبار التي يتناقلها أتباع الدين جيلا عن جيل. ولا تنفك المعجزة عن شخص الرسول فلا تبقى بمنأى عنه في الزمان والمكان. أما الرسالة المحمدية فهي مستمرة إلى يوم القيامة، ولا بدّ من معجزة مستمرة تقيم الحجّة على الأجيال اللاحقة بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم وربانية رسالته. ولا تؤدّي المعجزة المادية هذا الدور وهذه المهمة، فكان الاختيار الرباني أن تكون المعجزة وحيا .روى الشيخان من حديث الليث بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال» :ما من الأنبياء نبيّ إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة.(2) «

ب –كون القرآن الكريم المعجزة الخالدة :فمن المعجزة تستنبط أحكام الشريعة فآية تصديق الرسالة في الرسالة نفسها، وليس في معجزات الأنبياء السابقين ما يستنبط منها حكم تشريعي. وهذه ميزة فريدة لمعجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم دلالتها على مصدرها الرباني كامن فيها نفسها. فالرسالة هي المعجزة والمعجزة هي الرسالة.

وبهذه المزايا الفريدة لم تكن هذه المعجزة دليل صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فحسب بل كانت شاهد الصدق على رسالات الأنبياء السابقين وتبليغهم رسالات ربهم لأممهم. وبهذه المزايا أصبحت أمة محمد صلى الله عليه وسلم جديرة بالاستشهاد على الأمم الأخرى يوم يقع التناكر والجحود بين الأقوام ورسلهم، تزعم الأمم أن رسلها لم يبلّغوا الرسالات، عندئذ تدعى أمة محمد صلى الله عليه وسلم لتشهد على تبليغ الأنبياء أقوامهم رسالات ربهم، وما شهادتهم للأنبياء إلا على إخبار القرآن الكريم وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً] البقرة: 143.[

عنوان المحاضرة –] الحكمة في الصرف عن المطالبة بالمعجزات المادية إلى معجزة القرآن الكريم[

Lecture Title - [The wisdom of dismissing the claim of material miracles to the miracle [of the Noble Qur'an

] الحكمة في الصرف عن المطالبة بالمعجزات المادية إلى معجزة القرآن الكريم[

ولعلنا لا نستغرب عند ما نجد القرآن الكريم يصرف أنظار قريش المطالبين بالآيات المادية وغيرها من المقترحات يلفت أنظارهم إلى ما هو الأجدى والأليق والأرحم :وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا] (93) الإسراء: 90 – 93.[

وَقالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7) ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (8) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (9) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (11) كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13) وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ] (15) الحجر: 6 – 15 .[وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] (51) العنكبوت: 50 – 51.[

وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً] الرعد: 31.[

إن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن السهل الميسّر الهيّن عليه أن يلبّي جميع المطالب، ولكن لم يشأ ذلك لحكم:

]الحكمة الأولى[

لأنهم غير جادّين بهذه المطالب ولو لبّيت لهم لما آمنوا لأن قصدهم هو التعجيز كما أشارت الآية الكريمة السابقة وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ] (15) الحجر: 15 .[فمن العبث عندئذ اتبع أهوائهم ورغباتهم ولو اتّبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض.

روى ابن هشام في السيرة النبوية قال:

)اجتمع أشراف قريش بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ثم قال بعضهم لبعض :ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك، فأتهم فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلّمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا له :يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرّقت الجماعة فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ... فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم» :ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئت به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكنّ الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل عليّ كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .. «قالوا يا محمد :فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشا منا، فسل ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسيّر عنا هذه الجبال التي ضيّقت علينا، ويبسط لنا في بلادنا، ويفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصيّ بن كلاب فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول أحقّ هو أم باطل؟ فإن صدقوك، وصنعت ما سألناك، صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولا كما

تقول، فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه» :ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلّغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم«، قالوا :فإذا لم تفعل لنا فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم» :ما أنا بفاعل وما أنا الذي يسأل ربه هذا.. «

قالوا :فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربّك إن شاء فعل..

فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم» :ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل...)

فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قام معه ابن عمته عبد الله بن أبي أمية، قال:

يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ... فو الله لا أؤمن بك أبدا حتى تتخذ سلّما إلى السماء ثم ترقى فيه، وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك. ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم.(1) «

إن المراء والعناد واضح في مطالبهم، ولو أن هذه الخوارق وقعت كما اقترحوا ما كانت بالتي تقنعهم، فإن الله يضل من يشاء فلا يؤمن ولو أجيب إلى ما يقترحه من الآيات، ويهدي إليه من أناب فيؤمن بغير اقتراح آيات.

إن مطالبهم كانت بقصد التعجيز ولو لبيّت لانتقلوا إلى غيرها، ومواقفهم العنادية كانت تحتاج إلى تبرير للاستمرار عليها يقول تعالى :وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ] (71) المؤمنون: 71 .[إن كون القرآن بلسانهم وأسلوبهم فيه رفع لمقامهم وإعلاء لمكانتهم بين الناس ولكنهم يعرضون عن هذه المزية لعدم إدراكهم لقيمتها وحقيقتها.

]الحكمة الثانية في هذا الصرف عن المعجزات المادية[

إظهار مكانة القرآن الكريم، وأن المعجزات المادية تتضاءل بجانب معجزته فهو المعجزة الباقية الخالدة إلى يوم القيامة. والرسالة الشاملة الباقية لا بدّ لها من معجزة توائم خلودها وشمولها، فكان في هذا الالتفات والصرف عن المعجزات المادية إلى المعجزة الفكرية رفع لشأن الأمة من جهة وإبراز لميزات القرآن العظيم وبيان مكانته الرفيعة من جهة أخرى. لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] (21) الحشر: 21[،

]الحكمة الثالثة[

كان في هذا الصرف رحمة بهم، فقد جرت سنّة الله سبحانه وتعالى في رسالاته إلى الناس أن القوم إن أجيبوا إلى مطالبهم من المعجزات المادية الباهرة القاهرة ثم نكصوا على أعقابهم فكفروا بعد ذلك، جرت سنّة الله أن يكون العذاب المستأصل حظّهم في الدنيا والعذاب المهين مصيرهم في الأخرى.

وهذا ما يتجلى في الآيات التي تحكي مصائر الأمم والشعوب:

-وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ] (73) الأعراف: 73.[

-وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ] (42) القمر: 41 - 42.[

–إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَنَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَآخِرِنا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ] (115) المائد 115 – 112 :

يقول السهيلي في الروض الأنف ...) :إن التكذيب بالآيات من نحو ما سألوه من إزالة الجبال عنهم، وإنزال الملائكة، يوجب في حكم الله ألا يلبث الكافرين بها وأن يعاجلهم بالنقمة كما فعل بقوم صالح وبآل فرعون، فلو أعطيت قريش ما سألوه من الآيات وجاءهم بما اقترحوا ثم كذّبوا لم يلبثوا، ولكن الله أكرم محمدا صلى الله عليه وسلم في الأمة التي أرسله إليهم، إذ قد سبق في علمه أن يكذّب به من يكذب ويصدّق من يصدّق، وابتعثه رحمة للعالمين برّ وفاجر، أما البرّ فرحمته إياهم في الدنيا والآخرة، وأما

الفاجر فإنهم أمنوا من الخسف والغرق وإرسال حاصب عليهم من السماء كذلك قال بعض أهل التفسير في قوله تعالى :وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (107) (الأنبياء: 107.(1) [

وإلى هذه الحكمة تشير الآية الكريمة عند صرف القوم عن المعجزات المادية إلى معجزة القرآن الكريم في قوله تعالى:

وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] (51) العنكبوت: 50 – 51.[

إن في هذا الصرف رحمة الله بهم ليدخل بعضهم في الإسلام أو يخرج من أصلابهم من تتفتّح بصيرته لنور الحق والهداية.

]وجوه إعجاز القرآن[

تباينت أقوال العلماء في تحديد وجوه الإعجاز في القرآن الكريم:

فمنهم من أوصلها إلى عشرة وجوه، ومنهم من نيف على ذلك، ومنهم من جعل وجوه الإعجاز وجها واحدا ونافح عنه وأورد الاعتراضات على سواه. ومن يتتبّع هذه الوجوه التي ذكرها العلماء قديما وحديثا يجد كثيرا منها تتداخل أو تتشابه ويمكنه بعد الاستقراء والتحقق أن يجمع بين كثير منها.

نجد أن وجوها كثيرة تدور حول الأداء البياني وأسلوب القرآن الكريم المتميّز في ذلك ... ووجوه تنصب على الهدايات في القرآن الكريم ومراميه في إسعاد البشرية بإخراجها من الظلمات إلى النور وإيصالها إلى دار السعادة والنعيم المقيم ... ومن الوجوه ما يتعلق بالإخبار عن الغيوب ... ومنها ما اشتمل على إشارات وإيحاءات إلى سنن الله في الكون والطبيعة والحياة التي خلقها الله سبحانه وتعالى.

لذا يمكن أن نجمع الأقوال جميعا في أربعة وجوه وهي:

أولا :الإعجاز البياني.

ثانيا :الإعجاز العلمي) التجريبي.(

ثالثا :الإعجاز التشريعي.

رابعا :الإعجاز الغيبي.

الفصل الأوّل الإعجاز البيانيّ :

[فصاحة القرآن وبلاغته]

]أولا: تعريف الفصاحة والبلاغة[

الفصاحة :في اللغة: الظهور والبيان، ومنها أفصح اللبن إذا انجلت رغوته، ويقال أفصح الصبح إذا بدا ضوؤه واستبان(1) ، ولسان فصيح أي طلق.

وفي القرآن الكريم على لسان موسى عليه :وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي] القصص: 34.[

وفصاحة الكلام في الاصطلاح :خلوصه من التعقيد، وفصاحة القرآن :كونه لفظا عربيا مستعملا مؤدّي المعنى بوجه لا تعقيد فيه.(2)

نجد أن التعاريف كلها تدور حول الإظهار والوضوح مع الخلوّ من التعقيد.

والبلاغة في اللغة :مأخوذة من البلوغ وهو الوصول إلى الشيء والانتهاء إليه .يقال بلغت المكان بلوغا :وصلت إليه.

وفي الاصطلاح :البلاغة في الكلام: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ .(3) وقيل :أن يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع بإصابة موضع الاقتناع من العقل والوجدان من القلب.

وفي لسان العرب :رجل بليغ: حسن الكلام فصيح يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه .. وقال خالد بن صفوان :أبلغ الكلام ما قلّت ألفاظه وكثرت معانيه، وخير الكلام ما شوّق أوله إلى سماع آخره.(1)

وقال بعض المتأخرين :البلاغة: التعبير باللفظ الرائع عن المعنى الصحيح بلا زيادة ولا نقصان.(2)

ونجد أن تعاريف البلاغة تدور معظمها حول :إيصال المعنى إلى قلب المخاطب بعبارة سهلة موجزة، مراعيا في ذلك مقتضى حال السامع بحيث يؤثر في نفسه، ويبلغ منها ما يريد القائل. وهو ما دل عليه التعريف الأول ولعله أرجحها.

وهل من فرق بين الفصاحة والبلاغة؟

قال بعضهم :إنهما متعاقبان على معنى واحد .وذهب أغلبهم إلى التفريق فقالوا :إن الفصاحة من عوارض الألفاظ مع ملاءمة المعنى والبلاغة من عوارض المعنى، وهو تكميل المعنى باللفظ الذي يفهمه.

فالبلاغة في المعاني، والفصاحة في الألفاظ .يقال :معنى بليغ ولفظ فصيح.

يقول الخفاجي في» سر الفصاحة) :«والفرق بين الفصاحة والبلاغة:

أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني. لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة، وإن قيل فيها فصيحة وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغا.(3) (

ويقول) :فالفصاحة نعت للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة، ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ، وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف، وبوجود أضدادها تستحق الإطراح والذم، فمن هذه الشروط:

- **1أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج (1.(**
- **2أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حسنا ومزية على غيرها.**
- **3أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية.**
- **4أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية.**
- **5أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة.**

- 6أن لا تكون الكلمة قد عبّر بها عن أمر آخر يكره ذكره.

- 7أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف.(

وإذا استعرضنا آيات القرآن الكريم من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس على تعريف الفصاحة والبلاغة، وشروط الألفاظ الفصيحة والكلام البليغ، لوجدنا كل آية قد تحققت فيها الفصاحة والبلاغة في أبهى صورهما، ولوجدنا أن معاني الكلمات تنساب إلى القلب قبل أن تبهرنا الألفاظ بجمالها الساحر، سواء في ذلك السور والآيات التي تلفت أنظارنا إلى الآفاق لنستدل على الصانع من لوحة إبداعه الرائعة أو الآيات المتعلقة بمبدإ البعث والنشور والموقف والحساب أو ما يتعلق منها بتنظيم شئون الحاكم مع رعيته، أو الأسرة وحقوق أفرادها، وغيرها من الأمور التي تولى القرآن الكريم الحديث عنها.

كل تلك الآيات عليها الصبغة الزاهية من البيان الرائع والجمال اللفظي في أبسط أسلوب وأوضحه وأقربه إلى الفهم والقلب.

لقد كان معروفا ولا زال عند علماء البلاغة وأهل البيان أن هناك أمورا معيّنة وأحوالا خاصة يجيد فيها الشاعر أو الكاتب دون سواها. وحالته النفسية تلعب دورا في إعطاء الملامح والمزايا لإنتاجه، لذا عرف بعض الشعراء بجودة المديح والغزل وآخرون بالهجاء والذم، وكانت الأسبقية لآخرين في الشجاعة ووصف الحروب، ولغيرهم في الحكم ودقة التعبير عن المعاني العقلية أو النفسية. وكان إذا ترك أحدهم ما طبع عليه، وحاول أمرا لم يعتد عليه تناقصت قيمة شعره وإنتاجه وربما جاء بما يستنكر أو يستكره.

لذا ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب والنابغة إذا رهب وزهير إذا رغب. أما أن تلتزم الطبقة العليا في الفصاحة وذروة سنام البلاغة في كل صغيرة وكبيرة مهما اختلفت المواضيع وتباينت الأحوال وامتد الزمن فذلك ما لا نجده في إنتاج أحد من البشر، لأن البشر- كما يقول ابن عطية- يعمهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن أحدا من البشر لا يحيط بكل شيء علما، ولا يكون ذلك إلا للخالق جلّ جلاله وتعالى شأنه، الذي أحاط بالكلام كله فيعلم مكان اللفظة وما يناسبها في الترتيب، وما يصلح أن يكون رديفا لها، فلذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة.(1)

والمتتبع لآيات القرآن الكريم من العارفين بأفانين البلاغة يجد فيه فنونها بأسرها، من إفادة المعاني الكثيرة باللفظ القليل، ومن ضروب التأكيد، وأنواع التشبيه والتمثيل، إلى ضرب الأمثال، وأصناف الاستعارة، وحسن المطالع والمقاطع والفواصل، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، وخلوه عن اللفظ الغث الشاذ الخارج عن القياس، والشارد النافر عن الاستعمال، إلى غير ذلك من أنواع الفنون البلاغية بحيث لا يرى المتصفّح للقرآن الكريم وتراكيبه المتمرّس في

فنون البلاغة نوعا منها إلا وجده أحسن ما يكون، لا يقدر أحد من البلغاء الواصلين إلى ذروة البلاغة من العرب العرباء وإن استفرغ وسعه أن يحيط بأنواع قليلة منها. ومن كان أعرف بلغة العرب وفنون بلاغتها كان أعرف بمزايا بلاغات القرآن الكريم وإعجازه للثقلين.

]ثانيا: أمثلة على بعض الفنون البلاغية[

- 1]إيجاز القصر[

أ –قال تعالى في سورة النحل *:إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ] (90) سورة النحل: 90.[

–أمر الله سبحانه وتعالى في أول هذه الآية بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهى في وسطها عن الفحشاء والمنكر والبغي، ووعظ في آخرها وذكّر، فجمع في هذه ضروبا من البيان وأنواعا من الإحسان. فذكر العدل والإحسان، والفحشاء والمنكر بالألف واللام التي هي للاستغراق، أي استغراق الجنس المحتوي على جميع أنواعه وضروبه.

–وفي نهايتها الطباق اللفظي والطباق المعنوي، أما اللفظي ففي قوله) يأمر ... وينهى (وأما المعنوي ففي قوله: العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وقوله :الفحشاء والمنكر والبغي، فإن الثلاثة الأواخر من القبيح.

فطابق بين الحسن والقبيح مطابقة معنوية.

–ثم بين خصوصية ذوي القربى بإعادة الإيصاء عليهم والإيتاء لهم ومع أن الأمر بالإحسان قد تناولهم.

–وبدأ بالعدل لأنه فرض، وتلاه بالإحسان لأنه مندوب إليه وقد يجب، فاحتوت الآية على حسن النسق، وعطف الجمل بعضها على بعض فقدم العدل وعطف عليه بالإحسان الذي هو جنس عام، وخص منه نوعا خاصا وهو إيتاء ذي القربى.

–ثم أتى بالأمر مقدما، وعطف عليه النهي بالواو، ثم رتب جمل المنهيات كما رتب جمل المأمورات في العطف بحيث لم يتأخر في الكلام ما يجب تقديمه ولم يتقدم عليه ما يجب تأخيره.

–ثم ختم ذلك كله بأمور مستحسنة ودعا إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة فاحتوت الآية على ضروب من المحاسن والقضايا وأشتات من الأوامر والنواهي والمواعظ والوصايا، ما لو بث في أسفار عديدة لما أسفرت عن وجوه معانيها، ولا احتوت على أصولها ومبانيها.(1)

– 2 ومن الفنون البلاغية :التتميم:(2)

وهو على ثلاثة أقسام تتميم النقص، وتتميم الاحتياط، وتتميم المبالغة، وقد وردت الأقسام الثلاثة كلها في قوله تعالى :أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَأَصابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ] (266) البقرة: 266].

جاء أول هذه التتميمات في قوله تعالى في تفسير الجنة مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ فلو قال جنة لكان كافيا، ولكن عندئذ تحتمل أن تكون جنة ذات أثل وخمط وشيء من سدر قليل، فإن لفظ الجنة يصدق على كل شجر مجتمع يستر بظل غصونه الأرض كائنا ما كان، ومن الشجر ماله نفع عظيم عميم كالنخيل والأعناب. فإذا كانت الجنة عظيمة الفائدة ثم احترقت كان أسف صاحبها أعظم ومصابه أفدح. ثم علم الله سبحانه وتعالى أن الجنة إن كانت من نخيل وأعناب ما لم تجر الأنهار من تحتها لم يثمر شجرها ولم ينتفع بسكنها ولم تكن لها حياة البتة، فتمم هذا النقص بقوله تعالى :تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ. ثم علم الله سبحانه وتعالى أن الجنة لو جمعت إلى النخيل والأعناب كل الثمرات كان وصفها أتم ونفعها أعظم، والأسف على فسادها أشد فقال تعالى :لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ، متمما لذلك تتميم مبالغة .ولما فرغ سبحانه وتعالى من أوصاف الجنة أخذ في وصف صاحبها :فوصفه بالكبر، لأنه لو كان شابا لرجا أن يخلفها بعد إحراقها، لما يجد في نفسه من القوة وما يأمل من طول المدة فقال محتاطا وَأَصابَهُ الْكِبَرُ. ثم علم سبحانه وتعالى أنه إذا كان عقيما مع الكبر سلّاه عنها قرب المدة وعدم من يهتم بضياعه بعده فلا يشتدّ أسفه عليها، فقال عزّ وجلّ محتاطا أيضا :وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ. ثم علم أنه إذا لم يصف الذرية بالضعف احتمل الإطلاق أن يكونوا أقوياء، فيترجى إخلافهم لها،

فيخفض ذلك من أسفه فقال محتاطا :ضُعَفاءُ .ثم لما فرغ من وصف الجنة أخذ في وصف الحادث المهلك لها بقوله عزّ وجلّ :فَأَصابَها إِعْصارٌ. وعلم تبارك اسمه أن الإعصار لا يعجل فساد هذه الجنة، ولا يحصل هلاكها به إلا بعد استمراره عليها في مدة طويلة، وهو يريد الإخبار بتعجيل هلاكها فقال :فِيهِ نارٌ. ثم اقتصر سبحانه وتعالى من الرياح على الإعصار لكونه عبارة عن تقابل الرياح المثيرة للعجاج الكثيف الذي يعمي دوامه عيون الماء، ويطم الآبار والأنهار، ويحرق بسمومه ورهجه الأشجار، وإذا اتفق مع ذلك أن تكون فيه نار أدارها على المكان الذي يكون فيه بحيث لا ينصرف عنه، لأنه لا يقصد وجهة مقابلة فينصرف ما يكون فيه إليها. ثم علم الله سبحانه وتعالى أن النار يحتمل أن تكون ضعيفة فتطفأ لضعفها عن مقاومة ما في الجنة من الأنهار، ورطوبة الأشجار، فاحتاط لذلك بقوله:

فَاحْتَرَقَتْ فنفى هذا الاحتمال، وأوجز تتميم المعنى المراد.

وهكذا نجد أن الآية الكريمة قد تضمنت من الدقائق واللطائف ما يبرز الغرض المقصود من سوق المثل وهو إبراز عظيم أسف صاحب الجنة وتحسره على ما فاته منها، في حالة كان بأمس الحاجة إلى نتاجها وخيراتها. وكذلك المرائي بصدقته الذي ينفقها رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فإنه سيفقد هذا الثواب في وقت هو بأمس الحاجة إلى ما يثقل ميزان حسناته.

– 3]من الفنون البلاغية :التشبيه[

قال تعالى :إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] (24) يونس: 24 .[فإن في الآية عشر جمل وقع التركيب من مجموعها بحيث لو سقط منها شيء اختل التشبيه، إذ المقصود تشبيه حال الدنيا في سرعة تقضّيها، وانقراض نعيمها، واغترار الناس بها، بحال ماء نزل من السماء، وأنبت أنواع العشب وزين بزخرفها وجه الأرض كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة، حتى إذا طمع أهلها فيها وظنوا أنها مسلمة من الجوائح أتاها بأس الله فجأة، فكأنها لم تكن بالأمس.(1)

يقول صبحي الصالح تعليقا على قول السيوطي:

وإنه ليعنينا أن نقف قليلا عند تشبيه الحياة الدنيا، فلقد أصاب السيوطي في استخلاص وجه الشبه، وتقسيمه هذا التركيب القرآني إلى عشر جمل، أما موضع الجمال الحقيقي في هذا المشهد– مشهد الحياة القصيرة التي يوشك أن تزول– فلم يتتبعه السيوطي في تنسيق الجمل العشر، والصور التي تطويها كل جملة منها في أوقات يتفاوت عرضها الخيالي طولا وقصرا.

لأن هذا التفاوت في العرض الخيالي تبعا لمراحل المشهد المصور لم تكن جزءا من التشبيه المركب، فما على السيوطي إلا أن يذكر المعنى العام للآية وقد وفق فيه وأجاد، وإن علينا نحن أن نشير إلى المراحل التي أبطأ فيها التصوير وتمهل، أو التي اندفع فيها وأسرع، حتى تم لهذا المشهد القرآني من الإعجاز بالألفاظ الجامدة ما لا يتم من الإبداع بالريشة والألوان.

لقد استخدمت في هذا المشهد الوسائل المقصرة لعرض مراحل النبات، فالفاء التعقيبية تطوي المسائل بسرعة عظيمة، ما كاد الماء ينزل من السماء حتى اختلط به نبات الأرض مباشرة، وأصبح فجأة في متناول الناس يأكلونه والأنعام تتمتع به، إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ .(1) ولكن أهل هذه الأرض المتمتعين بنباتها البهيج يمتدّ بهم الغرور، ويلجّون في اللهو كأنهم يعيشون أبدا، وكأنهم يقدرون على إخلاد الأرض وإخلاد أنفسهم فيها، غارقين في متعها متقلبين في نعائمها، مسحورين بزخرفها، فاستخدمت) حتى (الدالة على امتداد الصور امتدادا يعرف أوله ويجهل منتهاه.

وتتابعت أوصاف الغرور الإنساني تترى، لكل وصف منها تعبير متمهّل متبطّئ، فأما الأرض فشخصت مرتين، وقامت بحركتين، إذ أخذت بنفسها زخرفها كما تفعل العروس في جلوتها، وتطلبت الزينة تطلبا وسعت إليها سعيا فلم تزين ولكنها ازينت. وأما أهل الأرض فانتفخت أوداجهم زهوًا واختيالا وصعّروا خدودهم عجبا وكبرا وأيقنوا– وإن كان يقينهم ظنا وخيالا– أنهم في الأرض على كل شيء قادرون، ولكن الظن لا يغني من الحق شيئا. وهذه الآماد الطوال كلها ليست إلا ومضات خيالية تزول كما تزول الأطياف. ففي لحظة من ليل أو نهار يأتي تلك الأرض أمر الله فيطوي تلك الأخيلة الكواذب في وقت كلمح البصر بل هو أقرب، إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ] (82) يس: 82.]

وانظر ما من زخرف وما من زينة، ثم انظر فالناس المغرورون أعجز من أن يتصوروا ولو بالخيال ربوعهم ومغانيهم في تلك الأرض التي أصبح نباتها حصيدا هشيما تذروه الرياح حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24)

عنوان المحاضرة - النظم القرآني (جزالته وتناسقه)] / [الأسلوب القرآني الفريد] Quranic systems (its fragmentation and consistency)] / / [The unique Qur'anic method

ثانيا : - النظم القرآني (جزالته وتناسقه)]

ويقصد بنظم القرآن طريقة تأليف حروفه، وكلماته، وجمله، وسبكها مع أخواتها في قالب محكم، ثم طريقة استعمال هذه التراكيب في الأغراض مع أخواتها في قالب محكم، ثم طريقة استعمال هذه التراكيب في الأغراض التي يتكلم عنها، للدلالة على المعاني بأوضح عبارة في أعذب سياق وأجمل نظم.

والفرق بين الأسلوب والنظم :أن دائرة الأسلوب أوسع وأشمل ولا يدرك الأسلوب بالجملة الواحدة(1) ، بينما النظم يمكن إدراكه في الجملة الواحدة بل وحتى في الكلمة الواحدة.

إن المتأمل في حروف القرآن الكريم وكلماته لا يجد فيها شيئا خارجا عن المألوف المتداول في لغة العرب قديما وحديثا، ولكن عند ما نتلو آيات الله نشعر أن للعبارة القرآنية كيانا خاصا بنى عليه تراكيبه ورسم معالم صورة نظمه الفريد على هذا الكيان الفريد.

فالكلام كما عهدته العرب شعر ونثر وما هو بين الشعر والنثر وهو السجع، ولو كان لإنسان عربي أن يتكلم أو يكتب أو يعلم أو يشرع أو يلفظ لما خرج في نظم كلامه أو تأليفه عن أخذ هذه الأنواع المعهودة عند العرب.

ولكن القرآن جاء في ثوب غير تلك الأثواب وفي صورة غير تلك الصور، جاء نسيج وحده، وصورة ذاته، فلا هو شعر ولا هو نثر ولا هو سجع، وإنما هو قرآن، فالآية في النظم القرآني وهو ليست بيت شعر وجملة نثر ومقطع سجع، بل هي قطعة من القرآن لها بداية ونهاية متضمّنة في سورة، ولكل آية مقطع تنتهي به هو الفاصلة، وليست هذه الفاصلة قافية شعر ولا حرف سجع وإنما هي شاهد قرآني لا يوجد إلا فيه، ولا يعتدل في كلام غيره.

إن النظم القرآني البديع بهر العرب بحسن مبادئ الآي والمقاطع وتماسك الكلمات واتساقها في التراكيب، وقد تأمّلوه آية آية وعشرا عشرا وسورة سورة فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها أو يرى غيرها أصلح هناك أو

أشبه أو أحرى، بل وجدوا اتساقا بهر العقول وأعجز أهل الحكم والبلاغات، ونظاما والتئاما وإتقانا وإحكاما لم يدع في نفس واحد منهم موضع طمع حتى خرست الألسن أن تدّعي وتتقوّل.

وأقروا في قرارة أنفسهم أن هذا ليس من قول البشر وإن أنكروا ذلك بألسنتهم. ومجيء النظم القرآني على هذا الشكل من الإتقان والإحكام إنما يعود- كما يقول ابن عطية- إلى أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما وأحاط بالكلام كله علما إذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطة أي لفظة تصلح أن تبين المعنى بعد المعنى ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن قط محيطا. فلهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة.

ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا ثم تعطى لأحد نظيره فيأخذها بقريحة خاصة فيبدّل فيها وينقّح ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل. وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن تتبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام.

وفيما يلي بعض مزايا النظم القرآني وأمثلة عليها:

]التناسق بين العبارة والموضوع الذي يراد تقريره[

إن الذي يتمعن النظر في النظم القرآني يلاحظ التناسق الكامل والتآلف التام بين العبارة القرآنية والمعنى الذي يراد بيانه وتوضيحه؛ فالألفاظ في النظم يلائم بعضها بعضا وهي كلها متوجهة إلى الغرض المنشود بحيث إذا كان المعنى غريبا كانت ألفاظه غريبة وإذا كان المعنى معروفا مستحدثا كانت الألفاظ تناسبها.

يقول بديع الزمان :فالكلام إذا حذا حذو الواقع وطابق نظمه نظامه حاز الجزالة بحذافيرها .ويكون ذا قوة وقدرة إذا كان أجزاؤه مصداقا لما قيل:

عباراتنا شتى وحسنك واحد ... وكل إلى ذاك الجمال يشير

بأن تتجاوب قيودات الكلام ونظمه وهيئته ويمدّ كل بقدره الغرض الكلي مع ثمراته الخصوصية.(1)

وفي الأمثلة التالية نلقي أضواء على هذا الجانب:

أ- لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يصف حالة يعقوب عليه السلام وهو يتأسف على يوسف عليه السلام، وكانت هذه الحالة غريبة في نظر أبنائه لأنهم لم يسدوا مكان يوسف، عبر عن هذه الحالة بكلمات غريبة كلها، فقال سبحانه وتعالى على لسانهم :قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً] يوسف: 85[، حيث أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها؛ فإن التاء أقل استعمالا وأبعد عن أفهام العامة، والباء والواو أعرف عند الكافة وهي أكثر دورانا على الألسنة وأكثر استعمالا في الكلام.

ثم أتى الله سبحانه وتعالى بأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار بالنسبة إلى أخواتها فإنّ) كان (وما قاربها أعرف عند الكافة من تفتأ.

وهم ل) كان (وما قاربها أكثر استعمالا منها وكذلك لفظ) حرضا (أغرب من جميع أخواتها من ألفاظ الهلاك (1) فاقتضى حسن الوضع في النظم أن تجاوز كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة أو الاستعمال توخيا لحسن الجوار ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ ولتتعادل الألفاظ في الوضع وتتناسب في النظم.

ب -وفي هذا الباب قوله تعالى :وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ] الأنبياء: 46[، في سياق بيان الضعف البشري أمام جبروت الخالق تبارك وتعالى فأراد بيان ضعفهم أمام العذاب الخفيف القليل فأتى بكلمات كلها تتجه إلى إظهار الغرض وهو وصف للعذاب بالقلة فأتى ب) إن (التي تفيد التشكيك في وقوعه، وأتى بكلمة) المسّ (بدل الإصابة أو الحرق فهو دونها في

المرتبة ودون الدخول، وكذلك كلمة) نفحة (مع تنوينها المشعر بضعف العذاب وحقارته و) من (المفيدة للبعضية فلم يأتهم كل العذاب وإنما هي نفحة عابرة يسيرة من جزء صغير من العذاب، ثم العذاب لم يضف إلى اسم دال على القهر والجبروت بل أضيف إلى أرق اسم دال على الشفقة وهو) رب(، ثم أضيف الرب إلى مقرّب محبوب وهو ضمير خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن الكلمات كلها مسوقة إلى هدف واحد وهو وصف هذا العذاب بالقلة والضآلة والحقارة ليبيّن بالتالي أن المذنبين يندمون ويتأسفون على ما عملوا عند تعرضهم لنفحة بسيطة من عذاب الله وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ

]ومن مزايا النظم القرآني اهتمامه بالجملة القرآنية واختيار المكان المناسب فيها للكلمة المعبرة[

بالإضافة إلى ما ذكرنا سابقا عن التناسق بين العبارة والمعنى الذي يراد توضيحه فإن هنالك نوعا من التناسق الرائع بين الكلمات في الجملة الواحدة وبين الحروف في الكلمة الواحدة.

فنظرة إلى تلك الحروف تبرز تناسبها لبعضها تناسبا طبيعيا في الهمس والجهر والشدة واللين والتفخيم والترقيق مما يشكّل أنغاما متناسقة متناسبة.

وهذه الخاصية تعود بلا شك إلى طريقة اختيارها وسبكها وتناسب مخارجها. كما أن وضع الكلمة في الآية واختيار موقعها والتئامها مع جاراتها له الأثر الكبير في إعطاء هذا الجرس الخاص والإيقاع المؤثر في نفس السامع.

ولا يقتصر وضع الكلمة في الآية على تأثيره في اللحن والنغم وإنما لهذا الموقع والوضع المناسب تأثير على المعنى وإبرازه، لذا نجد أن كثيرا من الباحثين اقتصروا على إبراز هذه الناحية دون الإشارة إلى ناحية اللحن والإيقاع.

والحقيقة أن الكلمات القرآنية لها دور وضرورة في السياق للدلالة على المعنى، كما أن لها دورا في تناسب الإيقاع دون أن يطغى هذا على ذاك أو يخضع النظم لأحد الأمرين. وفي الأمثلة التالية نرى اهتمام النظم القرآني في اختيار الكلمة المناسبة ذات الجرس المعين لأداء وظيفتها في الإيقاع كما أنها تؤدي في نفس الوقت دورها في تصوير المعنى وتشخيصه وإيضاحه على أتم صورة.

أ- اختير كلمة) حرث (لتشبيه النساء به دون الأرض أو الحقل أو الزرع وغيرها من المترادفات وذلك في قوله تعالى: نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ] البقرة: 223 .[ولعل اختيار هذه اللفظة دون سواها لما فيها من لطف الكناية في ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه وصلة الزوج بزوجه في هذا المجال الخاص، وبين ذلك النبت الذي يخرجه الحرث وذلك النبت الذي تخرجه الزوج وما في كليهما من تكثير وعمران وفلاح.

بينما هذه اللطائف لا تستفاد من كلمة) الأرض (إذ قد تكون جدباء لا تصلح لحراثة الزرع وكذلك الحقل فإنه لا يدل على عمل المالك فيه بل تدل الكلمة على شيء جاهز لا دخل فيه لبذر الحارث.

بذلك نلاحظ أن القرآن الكريم يتناول من الكلمات المترادفة أدقها دلالة على المعنى وأتمها تصويرا وتشخيصا للصورة وأجملها وأحلاها إيقاعا ووزنا بالنسبة إلى نظائرها.

ب- ومن هذا القبيل كلمة) أغطش (في قوله تعالى: وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها] (29) النازعات: 29.[

فهي مساوية من حيث الدلالة اللغوية لأظلم، ولكن) أغطش (تمتاز بدلالة أخرى من وراء حدود اللغة فالكلمة تعبر عن ظلام انتشر فيه الصمت وعمّ الركود وبدت في أنحائه مظاهر الوحشة. ولا يفيد هذا المعنى كلمة) أظلم (إذ هي تعبر عن السواد الحالك ليس غير.

ج- وحينما يصف القرآن الكريم دعوة امرأة العزيز للنسوة- اللائي تحدثن منتقدات عن مراودتها يوسف عن نفسه- إلى جلسة لطيفة في بيتها لتطلعهن فيها على يوسف وجماله فيعذرنها فيما أقدمت عليه، لقد قدمت لهن في ذلك المجلس طعاما

ولا شك. ولقد أوضح القرآن هذا، ولكنه لم يعبر عن ذلك بالطعام فهذه الكلمة إنما تصور شهوة الجوع وتنتقل بالفكر إلى المطبخ بكل ما فيه من ألوان الطعام وروائحه وأسبابه، ولكن بماذا يعبّر إذن؟ وأين في اللغة الكلمة التي تؤدي معنى الطعام ولا تمس الصورة بأي تعكير أو تشويه؟ لقد أبدع القرآن لذلك تعبيرا عجيبا رائعا حيث قال :فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً] يوسف: 31) .[متكأ (كلمة تصور من الطعام ذلك النوع الذي إنما يقدّم تفكّها وتبسطا وتجميلا للمجلس وتوفيرا لأسباب المتعة فيه، حتى إن الشأن فيه أن يكون الإقبال عليه في حالة من الراحة والاتّكاء. ولعلها أدركت بغريزتها النسائية ما سيئول إليه أمرهن فاختارت هذا المتكأ مما يحتاج فيه إلى سكين وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً.

د- وأحيانا يكون الاختيار للكلمة في مكان دون أماكن ويستبدل به غيرها لسرّ لطيف بالرغم من كون الموضوع واحدا، لكن الكلمة المختارة تعطي مدلولا خاصا لا يوفّيه حقّه إلا استعمال الكلمة القرآنية المختارة.

فمثلا :جاءت الملائكة بالبشرى لزكريا عليه السلام بيحيى، وأيضا جاءت بالبشرى للسيدة مريم العذراء بالمسيح عليه السلام. لكن وضع المبشّرين مختلف، وتلقّي الخبر منهما يكون له رد فعل يغاير ما في نفس الآخر، واستغراب كلّ منهما يكون لجانب أشد التصاقا بحاله ووضعه .قال زكريا عليه السلام عند ما جاءته البشرى :قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عاقِرٌ] آل عمران: 40 .[وقالت مريم عليها السلام عند ما جاءتها البشرى :قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ] آل عمران: 47.[

ورد في كلام زكريا عليه السلام لفظ الغلام وهو الموافق والمطابق لحاله لأنه رجل متزوج ومن شأن المتزوجين كما هي العادة أن يولد لهم، ولكن الغريب في الأمر والمعجزة أن يولد له في هذه السن المتأخرة من حياته وامرأته عاقر فكانت الكلمة التي تؤدي الغرض ووجه الاستغراب هي كلمة) غلام.(

أما مريم عليها السلام فالتعجب في جانب آخر إذ إنها عذراء ولم يمسسها بشر ولم تك بغيّا، فالغرابة والمعجزة أن تلد وهي عذراء فكانت الكلمة المعبرة التي تؤدي المعنى بدقة وتوضح وجه الاستغراب لها هي كلمة) ولد .(1) (فسبحان الذي أحاط علمه بسر اللغة ومكنوناتها أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

هـ- ومن هذا القبيل استعمال كلمة) قرية (تارة واستعمال كلمة) المدينة (في موضع آخر في سورة الكهف.

فعند ما كان الحديث عن بخل ولؤم السكان جاء التعبير بكلمة) أهل قرية (لأن مادة) قرى (تدل على الجمع ومن مستلزماته الإمساك والبخل، بينما عند ما جاء الحديث عن الغلامين والخوف من ضياع كنزهما جاء التعبير ب) المدينة (لأن زحمة المدينة وكثرة الوجوه الغريبة فيها أليق بإضاعة المساكين والضعفاء، كما أن التحايل والغبن يكثر في المدن أكثر منها في القرى .وكل ذلك تجده في قوله تعالى :فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما ... وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ] ... الكهف: 77، 82.[

وفي قصة يوسف عليه السلام استعمل التعبير القرآني كلمة فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ولم يستعمل افترسه الذئب، علما أن الشائع في الاستعمال إطلاق كلمة الافتراس على مثل هذا النوع، وذلك للطيفة دقيقة وهي أن الافتراس من فعل السبع معناه القتل فحسب، وأصل الفرس :دق العنق، والقوم إنما ادّعوا على الذئب أنه أكله أكلا، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه فلم يترك مفصلا ولا عظما. وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إيّاهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه فادّعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى فلم يصلح على هذا أن يعبّر عنه إلا بأكل.

وبالإضافة إلى اختيار الكلمة المناسبة لأداء المعنى المعيّن فإن النظم القرآني يهتم بالإيقاع والانسجام في اللفظ والنغم:

فيؤتى بالكلمة وتوضع في مكان معيّن من العبارة بحيث لو تغيّر وضعها تقديما أو تأخيرا أو حذفا لاختل ذاك التناسق اللفظي وذاك الوزن الخاص.

ففي قوله تعالى :أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى] (20) النجم: 19 - 20 .[لو حذفت كلمة) الأخرى (لاختلّت الفاصلة ولتأثّر الإيقاع، ولو قيل أفرأيتم اللات والعزى ومناة الأخرى بحذف كلمة) الثالثة (لاختل الوزن أيضا.

وكذلك قوله تعالى :أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (21) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى، فلو قيل ألكم الذكر وله الأنثى تلك قسمة ضيزى، بحذف كلمة) إذن (لاختل الإيقاع المستقيم بكلمة) إذن .(فكأن هذه الكلمات والحروف موزونة بميزان شديد الحساسية تميله أخف الحركات والاهتزازات.

ومن هنا يبدو لنا بجلاء سبب إطلاق العرب الأوائل في بداية نزول الوحي اسم الشعر على القرآن الكريم، لأنهم لم يعهدوا هذه الحساسية وهذا الوزن وهذا النغم إلا في الشعر. ولكنهم عند ما قاسوه على أوزان الشعر المعهودة لديهم، وجدوا القرآن الكريم- بالرغم من اشتماله على روعة الشعر وإيقاعه وحساسيّته وتآلف كلماته واستخدامه التصوير البارع في التعبير، والمنطق الساحر في الإقناع- لم يتقيد بقيود الشعر الكثيرة من قافية موحدة وتفعيلة تامة .لذا وجدوا أن القرآن الكريم ملك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة كما أنه بفواصله الخاصة به قد أوجد الإيقاع الخاص به فلم يملك قائلهم إلا أن يقول :إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته .

ثالثا : [الأسلوب القرآني الفريد]

ويطلق الأسلوب في اللغة على الطريق الممتد، ويقال للسطر من النخيل أسلوب، والأسلوب الطريق والوجه والمذهب، والأسلوب الفن، يقال :أخذ فلان في أساليب من القول، أي أفانين منه.

وفي اصطلاح البلاغيين :هو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير، أو هو العبارات اللفظية المنسّقة لأداء المعاني .فالأسلوب القرآني :هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه(1) ، ولقد تواضع العلماء قديما وحديثا على أن للقرآن أسلوبا خاصا به مغايرا لأساليب العرب في الكتابة والخطابة والتأليف.

وكان العرب الفصحاء يدركون هذا التمايز في الأسلوب القرآني عن غيره من الأساليب، روى مسلم في صحيحه) (2 أن أنيسا أخا أبي ذر قال لأبي ذر: لقيت رجلا بمكة على دينك، يزعم أن الله أرسله، قلت :فما يقول الناس، قال :يقولون شاعر، كاهن، ساحر- وكان أنيس أحد الشعراء -قال أنيس :لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.(

ولقد أبرز العلماء ميزات للأسلوب القرآني اختص بها من بين سائر الكلام، فمن هذه الميزات:

]أولا: المرونة والمطاوعة في التأويل[

نجد في الأسلوب القرآني مرونة في التأويل ومطاوعة على التقليب بحيث لا يدانيه أسلوب من الأساليب، وهذه المرونة في التأويل لا تحتمل الآراء المتصادمة أو المتناقضة وإنما مرونة تجعله واسع الدلالة سعة المورد الذي تزدحم عليه الوفود ثم تصدر عنه وهي ريّانه راضية.

فالأسلوب القرآني يشفي قلوب العامة ويكفي الخاصة، فظاهره القريب يهدي الجماهير وسواد الناس ويملأ فراغ نفوسهم بالترغيب والترهيب والجمال الأخاذ في تعابيره ومشاهده، وباطنه العميق يشبع نهم الفلاسفة إلى مزيد من الحكمة والفكر، يحل العقد الكبرى عندهم من مبدأ الكون ومنتهاه ونظامه ودقة صنعه وإبداعه.

وهذه المرونة من أسباب خلود القرآن فإن الأساليب العربية طوال أربعة عشر قرنا قد عراها كثير من التغيير والتلوين اللفظي والذهني، ومع ذلك فإن القرآن بقي خالدا بأسلوبه المتميّز وبخصائصه الفريدة يتجدّد مع العصور وظل رائع الأثر على تراامي الأجيال إلى هذه الأيام وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إن الأسلوب القرآني لم يستغلق فهمه على العرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم ولم يكن لهم إلا الفطرة السليمة الذوّاقة للجمال، وفهمه وتفاعل معه من جاء بعد ذلك من أهل العلوم والأفكار، وفهمه زعماء الفرق المختلفة على ضروب من التأويل، وقد أثبتت العلوم الحديثة المتطوّرة كثيرا من حقائقه التي كانت مخفيّة عن السابقين، وفي علم الله ما يكون من بعد.

لقد فهم علماء السلف رضوان الله عليهم الآيات الكريمة :أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ (3) بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ] (4) القيامة: 3، 4[، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها] (30) النازعات: 30[، غير ما فهمه العلماء المتأخرون بعد تطور العلوم الطبيّة والفلكية ولم يبعد عن الصواب من قال:

)الزمن خير مفسر للقرآن .(وما ذاك إلا لأن القرآن كتاب الإنسانية الخالد الذي لا يستطيع جيل من الأجيال استفراغ ما فيه من كنوز العلوم والحكم والحقائق.

]ثانيا: اعتماد الأسلوب القرآني الطريقة التصويرية في التعبير[

من السمات البارزة للأسلوب القرآني هو اعتماده الطريقة التصويرية للتعبير عن المعاني والأفكار التي يريد إيضاحها، سواء كانت معاني ذهنية مجرّدة، أو قصصا غابرة، أو مشاهد ليوم القيامة وغيرها من المجالات.

إن الأسلوب القرآني يحمل تاليه إلى أجواء الصورة وكأنه ينظر في تفصيلات الصورة المجسّمة أمامه، وكأن المشهد يجري أمامه حيّا متحرّكا، ولا شك أن الفكرة أو المعنى الذي يراد إيضاحه يكون أقرب إلى الفهم وأوضح في الذهن مما لو نقل المعنى مجرّدا من تلك الصور الحية، ويكفي لبيان هذه الميزة أن نتصور هذه المعاني كلها في صورها التجريدية ثم نقارنها بالصورة التي وضعها فيها القرآن الكريم، فمثلا:

أ -معنى النفور الشديد من دعوة الإيمان :إذا أردنا أن نتصور هذا المعنى مجرّدا في الذهن يمكن أن نقول: إنهم ينفرون أشد النفرة من دعوة الإيمان فيتملّى الذهن وحده معنى النفور في برود وسكون.

ولنمعن النظر في الأسلوب القرآني وهو يصوّر لنا هذا المعنى في هذه الصورة الغريبة :فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ] (51) المدثر: 49 - 51 .[فتشترك مع الذهن حاسة النظر وملكة الخيال وانفعال السخرية وشعور الجمال :السخرية من هؤلاء الذين يفرون كما تفر حمر الوحش من الأسد لا لشيء إلا لأنهم يدعون إلى الإيمان، والجمال الذي يرتسم في حركة الصورة حينما يتملّاها الخيال في إطار من الطبيعة تشرد فيه الحمر يتبعها قسورة، فالتعبير هنا يحرك مشاعر القارئ وتنفعل نفسه مع الصورة التي نقلت إليه وفي ثناياها الاستهزاء بالمعرضين.

ب- ومعنى عجز الآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله! يمكن أن يؤدى في عدة تعبيرات ذهنية مجرّدة، كأن يقول إن ما تعبدون من دون الله لأعجز عن خلق أحقر الأشياء فيصل المعنى إلى الذهن مجرّدا باهتا.

ولكن التعبير التصويري يؤديه في هذه الصورة :إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ] الحج: 73 .[فيشخص هذا المعنى ويبرز في تلك الصور المتحركة المتعاقبة:

لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً درجة، وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وهذه أخرى، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ وهذه ثالثة، والاقتران بين الطالب والمطلوب ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ وهي الرابعة.

إنه الضعف المزري الذي يثير في النفس السخرية اللاذعة والاحتقار المهين، ولكن أهذه مبالغة؟ وهل البلاغة فيها هي الغلو؟.

كلا فهذه حقيقة واقعة بسيطة. إن هؤلاء الآلهة لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ. والذباب صغير حقير ولكن الإعجاز في خلقه هو الإعجاز في خلق الجمل والفيل؛ إنها معجزة الحياة يستوي فيها الجسيم والهزيل.

فليست المعجزة هي خلق الهائل من الأحياء إنما هي خلق الخلية الحيّة كالهباء. والصورة الفنية هنا هي الربط بين قدسية الآلهة المزعومة حيث وضعت في أذهان معتنقيها في أقدس صورة والربط بينها وبين مخلوق صغير حقير. ولم يكتف بهذا الربط بل حشد لهذا المخلوق جموعا ضخمة فعجزوا عن خلقه، ثم في الصورة التي تنطبع في الذهن من طيرانهم خلف الذباب لاستنقاذ ما يسلبه، وفشلهم مع اتباعهم عن هذا الاستنقاذ.

ثالثا : طريقة الأسلوب القرآني المتميزة في المحاجّة والاستدلال:

لقد أورد القرآن الكريم من أفانين القول في سياق محاجّة الكفار وتصحيح زيغ المحرّفين والوعد لأوليائه والوعيد لأعدائه ما يخرج عن طوق البشر الإحاطة بمثل هذه الأساليب في أوقات متقاربة أو متباعدة؛ فالنفس الإنسانية لا تستطيع التحول في لحظات عابرة في جميع الاتجاهات بل تتأثر بحالة معينة. ولا تستطيع التحول عنها إلى اتجاه معاكس إلا ضمن بيئة ملائمة. أما الأسلوب القرآني فيلاحظ فيه الانتقال في شتى الاتجاهات في لحظات متقاربة متتالية، وأحيانا تكون مترادفة. فمن مشرّع حكيم يقر الدساتير والأنظمة في تؤدة وأناة ورويّة، إلى وعيد وتهديد لمن يرغب عن التشريعات ويريه سوء المصير، إلى غافر يقبل توبة العبد إذا تاب وأناب، إلى معلم يعلم كيفية الالتجاء إلى الخالق سبحانه وتعالى بأدعية لا تخطر على البال، إلى مقر لحقائق الكون الكبرى، ومن مرئيات الناس ومألوفاتهم والتدرج بهم إلى أسرار سنن الله في الكون.

لنتأمل قوله تعالى :ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67) لَوْلا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (68) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالًا طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] (69) الأنفال: 67 - 69.[

هاتان الآيتان نزلتا بعد إطلاق أسرى بدر وقبول الفداء منهم. وقد بدأتا بالتخطئة والاستنكار لهذه الفعلة، ثم لم تلبث أن ختمتا بإقرارها وتطييب النفوس بها بل صارت هذه السابقة التي وقع التأنيب عليها هي القاعدة لما جاء بعدها.

هل الحال النفسية التي يصدر عنها أول هذا الكلام- لو كان عن النفس مصدره- يمكن أن يصدر عنها آخره ولمّا تمض بينهما فترة تفصل بين زمجرة الغضب وبين ابتسامة الرضى والاستحسان؟ إن هذين الخاطرين لو فرض صدورهما عن النفس متعاقبين لكان الثاني منهما إضرابا عن الأول ماحيا له ولرجع آخر الفكر وفقا لما جرى به العمل. فأي داع دعا إلى تصوير ذلك الخاطر المحمود وتسجيله على ما فيه من تقريع علني وتنغيص لهذه الطعمة التي يراد جعلها حلالا طيبة؟.

إن الذي يفهمه علماء النفس من قراءة هذا النص أن هاهنا شخصيتين منفصلتين وأن هذا صوت سيد يقول لعبده :لقد أخطأت ولكني عفوت عنك وأذنت لك.(1)

إن انفراد الأسلوب القرآني بهذه الميزات لهو دليل مصدره الإلهي فما الأسلوب إلا صورة فكرية عن صاحبه.

فالحذّاق من الكتاب عند ما يقرءون قطعة نثرية أو قصيدة شعرية لكاتب ما يدركون بملكتهم الأدبيّة وحسّهم المرهف الحالة النفسية التي كان عليها الكاتب عند الكتابة بل يذهبون إلى أكثر من هذا، إلى ما وراء السطور فيستنبطون كثيرا من أوصافه النفسية والخلقية فيحكمون عليه أنه عاطفي المزاج أو قوي النفس أو صاحب عقل ودراية أو حقود أو منافق أو غير ذلك من الأمور الخاصة.

ولا شك أن هذا إدراك شيء أعظم وأرقى من العلوم الظاهرة والتي تقف بأصحابها عند جودة الأسلوب ومتانته وقوة السبك ورصانته، فإذا كان الأدباء وأهل البلاغة يدركون هذه الحقائق بعد العلوم الاكتسابية التي تعلّموها ومارسوها فإن العربي الذوّاقة لأساليب الكلام وكان عمدة شغله وصناعته وأحد دعائم حياته فنون القول وتذوّق مواطن الجمال في الكلام، لا شك أنه كان من أعرف الناس بما وراء الألفاظ والكلمات وكان يدرك بنظرته السليمة وسليقته الصافية حقيقة الذات التي وراء الأسلوب.

إن العربي الذواقة لجمال القول أدرك أسلوب القرآن المتميز وعرف أن سبب هذا التميز هو أن القرآن من مصدر غير مصادر كلام البشر ومن ذات غير مخلوقة لذا تميز الأسلوب عن أساليب المخلوق، فما دامت قوة الخلق والإبداع من العدم ليس في مقدور البشر بل وكل المخلوقات فلن يستطيع أحد منهم إيجاد أسلوب يشبه أو يقارب الأسلوب القرآني.

ولعل هذا الإدراك هو الذي منع العقلاء وأهل الفصاحة واللسن من سائر العرب من محاكاة القرآن. ومن تعرّض لمحاكاته صار أضحوكة بين الناس لأنه حاول أن يخرج عن طبيعته وذاته ونفسيته إلى محاكاة الذات الإلهية .أورد الإمام ابن كثير في تفسيره قال ..) :سأل الصدّيق بعض أصحاب مسيلمة الكذاب بعد أن رجعوا إلى دين الله أن يقرءوا عليه شيئا من قرآن مسيلمة. فسألوه أن يعفيهم من ذلك فأبى عليهم إلا أن يقرءوا عليه شيئا منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس فيعرفوا فضل

ما هم عليه من الهدى والعلم، فقرءوا عليه قوله) :والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا والخابزات خبزا واللاقمات لقما إهالة وسمنا، إن قريشا قوم يعتدون(، وقوله) :يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين (إلى غير ذلك من هذياناته، فقال أبو بكر رضي الله عنه :ويحكم أين كان يذهب بعقولكم؟

والله إن هذا لم يخرج من إل- أي إله.(1) (

لقد أدرك الصدّيق رضي الله عنه بحسه المرهف وذوقه السليم النفسية التي خرجت منها العبارات والتراكيب وطريقة صياغتها والصبغة الخاصة بنفسية قائلها؛ إنها طبيعة بشرية وليست صادرة عن الخالق سبحانه وتعالى.

[وجه دلالة الإعجاز البياني على مصدر القرآن]

من خلال استعراضنا لجوانب من بيان القرآن الكريم مما يتعلق بفصاحته وبلاغته ونظمه وأسلوبه، وذكر الأمثلة على ذلك من الآيات الكريمة، يتضح لكل منصف أن أفانين القول التي وردت في القرآن الكريم من فاتحته إلى خاتمته لا تخلو آية من آياته عن نكتة لطيفة أو حكمة طريفة أو بيان مفحم أو عبارة تأخذ بالألباب وتحير العقول بجمالها وبلاغتها.

ولهذا كان بيانه كالسحر الحلال يستولي على عقل السامع ويسلبه إرادته ويسخره لأغراضه، ولهذا كان القرآن معجزا، أعجز الثقلين أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فكان المعجزة الخالدة المستمرة إلى يوم القيامة والحجة القاهرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

إن الأسلوب المتميز من بين الأساليب الذي اختص به القرآن الكريم، والنظم المحكم الدقيق الذي لا تكاد العقول تدرك بعض خصائصه إلا ويبهرها الجمال وتسيطر عليها الدهشة، مع استمرار الفصاحة والبلاغة من أول آياته إلى آخرها لدليل واضح على أن هذا الكتاب الكريم ليس من صنع البشر وإنما هو تنزيل من خالق القوى القدر وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا 5 قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً 6] الفرقان: 5، 6[، وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ 37] يونس: 37.[

عنوان المحاضرة - الإعجاز العلميّ التّجريبيّ

Lecture Title - Experimental Scientific Miracles

سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ] فصلت: 53[

الإعجاز العلميّ) التجريبيّ(

]تمهيد: بين يدي البحث في الآيات الكونية[

إن الهدف الأساسي للقرآن الكريم هو تبصير الإنسان بطريق الهداية ودعوته لسلوكها، إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً] (9) الإسراء: 9.[

وجاءت هذه الهدايات والدعوة إليها بأساليب متنوعة، فمن مخاطبة للفطرة الإنسانية، ومن استدلال بواقع الأشياء المحسوسة، إلى مجادلة عقلية، إلى تذكير بعاقبة الأمم السابقة، إلى لفت نظر إلى واقع القصور البشري .. ولما كان المخاطبون هم جملة الناس بمختلف طبقاتهم وفئاتهم وعلى اختلاف مستوياتهم الفكرية والثقافية، جاء في القرآن الكريم من البراهين والأدلة والأمثال ما يعم الشرائح الاجتماعية على مختلف العصور والبيئات لأن المنطلقات الإنسانية محكومة بالفطرة والعقل والتجارب، وكل ذلك في دائرة المحدود الممكن، لذا كانت قواعد المخاطبات وأسسها العامة تعمّ كل من كان في عصر نزول الوحي ومن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة. وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا 54] الكهف: 54.[

وإذا أدركنا هدف القرآن ومنهجه في الخطاب أدركنا أن ورود الآيات الكونية سواء ما يتعلق منها بالآفاق وما يتعلق منها بالأنفس البشرية شيء بدهي أيضا، لأن من فئات الناس المكلفين المخاطبين بالقرآن الكريم من ينصبّ جلّ اهتمامه على هذه الجوانب من مخلوقات الله، ولا بد من إقامة الحجة عليهم وإظهار أن القرآن كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ليبشر به المؤمنين وينذر به قوما لدّا، ومن العسير أن تتذوق هذه الطوائف الجمال البياني وتدرك فصاحته وبلاغته لتعترف بالتالي أنه كلام الله المعجز...

ولكنهم يدركون أن هذه المعارف الإنسانية وهذه الحقائق الكونية لا يتصوّر أن يدركها بشر من ذاته، لأن كثيرا منها لم تكتشف إلا في عصور متأخرة جدا بعد التقدم العلمي في العلوم الكونية وبعد اختراع آلات دقيقة لم يكن للسابقين عهد بها.

فإن ورود هذه الحقائق الضخمة والدقيقة في نفس الوقت على لسان رجل لم يكن له إلمام بمثل هذه العلوم دليل على أنه تلقّاها ممن يعلم السرّ في السماوات والأرض قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً 6] الفرقان: 6.[

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن مئات الآيات قد تحدثت عن سنن الله سبحانه وتعالى في هذا الكون ونظامه وألوان العناية الربانية بمخلوقاته فيه(1) ، لذا كان لزاما على المهتمين بالدراسات القرآنية أن يولوا هذا الجانب اهتمامهم.

[ضوابط في مبحث الإعجاز العلمي وتفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم]

قبل البدء ببحث الآيات الكونية ينبغي أن نضع نصب أعيننا الضوابط التالية:

- 1]القرآن كتاب هداية[

إن القرآن الكريم كتاب هداية، هداية الناس إلى بارئهم للقيام بالدور الذي أوكل إليهم في خلافة الأرض ولأداء المهمة التي خلقوا من أجلها:

وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ 56 ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ 57 إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ 58] الذاريات: 56 - 58 .[وقد سلك القرآن الكريم جميع الأساليب والمسالك العقلية والفطرية لحمل الإنسان على هذا الهدف فلفت الأنظار من أجل ذلك إلى الكون المحيط بأفلاكه وكواكبه وليله ونهاره وسهوله وجباله وبحاره وأنهاره وسحبه وأمطاره ونباته وأشجاره.

ولفت النظر كذلك إلى أعماق النفس الإنسانية بعواطفها ومشاعرها وطاقاتها وقدراتها وإمكانات جوارحها، وارتفاعها أو إخلادها إلى الأرض.

وشد الانتباه إلى ما يحيط بالإنسان مما هو مسخّر له لخدمته وتيسير المشقّات عليه من الحيوان والنبات والجماد ... فينبغي أن تبقى الدراسات القرآنية المتعلقة بالآيات الكونية في حدود هذا الغرض، ولا تؤثر على الهدف الأساسي للقرآن الكريم.

- 2]ترك الإفراط والتفريط[

عدم التفريط في البحث في الآيات الكونية، وبشرط التقيد بالمنهج القرآني وعدم تحميل النصوص ما لا تحتمل، فلا ينبغي أن تهمل التوجيهات بصدد ما في الكون المسخر لمصلحة الإنسان فإن أهملنا فقد فرطنا في مئات الآيات التي تشدّنا إليها شدا. إلا أن هذا الشد وهذا التنبيه ينبغي أن نقف عند حدوده فلا نتجاوزه إلى البحث عن دقائق خصائص هذه الأمور الكونية أو الإنسانية أو الحيوانية أو النباتية، فنفصل القول في ذلك ونجعل تفاسير القرآن وكأنها كتب لهذه العلوم المختصة ولا نترك شاردة ولا واردة ولا نظرة مستحدثة إلا ونربطها بتفسير الآية الكريمة. إن هذا العمل يخرجنا عن حدّ الاعتدال، كما يخرج القرآن الكريم والتفسير- الذي هو بذل الجهد في بيان مراد الله من الآية- يخرج كل ذلك عن الهدف الأساسي وهو أن القرآن الكريم كتاب هداية، وأن تفاسيرنا ينبغي أن تكون لشرح وبيان الأساليب المستخدمة لتحقيق هذه الهداية.

- 3]مرونة الأسلوب القرآني[

الأسلوب القرآني في الآيات مرن يقبل وجوها في التأويل فينبغي أن يكون معلوما لدينا أن القرآن الكريم عند ما يعرض القضايا الكونية أو الجوانب المادية أو المعنوية في الإنسان أو ما يحيط به، يستعمل أسلوبا مرنا يقبل وجوها للتأويل. فعند إرادة فهم الكلمة القرآنية أو العبارة القرآنية لا بد من الرجوع إلى دلالات الكلمة الحقيقية والمجازية، واستعمالاتها في اللغة العربية، لتكون المعاني التي تحتملها الكلمة واضحة في الذهن عند الإقدام على تفسيرها في هذا المجال.

- 4]الحقائق العلمية مناط الاستدلال[

الاقتصار على الحقائق العلمية في صدد تفسير الآيات بأن نبعد عن الساحة الفرضيات والنظريات العلمية التي لم تصل إلى درجة الحقيقة العلمية، وينبغي عدم ذكر النظريات ولو من باب الاستئناس بها، لأن ربط نظرية قابلة للتغيّر والإبطال بتفسير آية قرآنية يورث شعورا معينا لدى القراء، وفي حال ظهور بطلان هذه النظرية فلن

يسلم الفهم الخاص بالآية من شويش واهتزاز، وكلام الله سبحانه وتعالى منزه عن أن يطرأ عليه مثل ذلك، ومن هنا كان خطأ بعض المفسرين الذين ذكروا الروايات الإسرائيلية -التي تدخل تحت نص» :حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج - «عند ما وضعوها في تفاسيرهم وقرنوها بالآيات الدالة على ما هو قريب منها، حتى أصبح الناس ينظرون إليها على أنها تفسير للآية لا محيد عنه. ثم ظهر بطلان كثير من هذه الروايات ومناقضتها للحقائق التاريخية والكونية والفلكية مما هزّ ثقة الناس بالتفسير بالمأثور.

- 5]عدم حصر دلالة الآية على الحقيقة الواحدة[

عند إحاطتنا بدلالات الكلمة اللغوية الحقيقة والمجازية واستعمالات العرب لها، إن وجدنا أن حقيقة علمية تؤيد إحدى هذه الدلالات، لا بأس عندئذ أن نرجح الدلالة التي أيدتها الحقيقة العلمية على أن لا نحكم بالبطلان والفساد على الدلالة التي رجحناها من جهة أخرى، فقد تكون الحقيقة العلمية التي رجحنا على ضوئها هذه الدلالة إحدى وجوه دلالات الآية، وظلالها ممتدّة إلى حقائق أخرى لم نتمكن من التوصل إليها حسب ثقافة عصرنا، إلا أن التقدم العلمي والحضاري كفيل أن يميط اللثام لنا عن جوانب أخرى.

فمثلا قوله تعالى :بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ 4] القيامة: 4.[

كان إلى ما يقرب من مائة سنة ينظر إلى دلالة) تسوية البنان (نظرة تختلف عن نظرتنا لها الآن بعد معرفة قضية البصمات، إلا أننا لا نبطل كلام السلف في معنى الآية، فالآية تدل على ما قالوه وما فهموه.

والشعور الذي استقر في نفوسهم عن أن هنالك حكمة عظيمة في خلق البنان وتسويته على هذه الشاكلة شعور مرهف وصحيح، وإن كان فهمنا الآن لدلالة الآية على ضوء معطيات العلم الحديث أعمق وأدل، وكذلك فإن شعورنا في دقة صنعة الخالق سبحانه وتعالى وحكمته سليم وصحيح .ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نقول :إن معنى الآية هو هذا فحسب، وليس بعد فهمنا لها فهم آخر، بل قد يكشف لنا المستقبل عن أسرار إلهية في البنان فوق ما تصورناه ووصلت إليه مداركنا العصرية، وتبقى الآية الكريمة مجال بحث الباحثين واستنباط المفكرين وبصمة إعجاز على جبين العصور بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ 4.

- 6]استحالة التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية[

يستحيل التصادم بين الحقائق القرآنية وبين الحقائق العلمية لأنهما من مشكاة واحدة. وينبغي أن يكون من المسلّمات في أذهاننا أن الحقائق القرآنية المتعلقة بأيّ جانب من جوانب الكون أو الإنسان والحيوان والنبات- إذا كانت قطعية الدلالة- لا يمكن أن تصادمها حقيقة علمية توصّل الجهد البشري إليها بناء على جهود المختصين خلال التاريخ الحضاري للبشرية.

وما يثيره بعض الناس من توهم بوجود تناقض فهو سوء فهم للحقيقة القرآنية بأن يتوهمها قطعية الدلالة ولا تكون كذلك، أو سوء فهم للحقيقة العلمية بأن يظنها حقيقة علمية وهي لا تزال في طور النظرية. ونحن نقول جازمين باستحالة وقوع مثل هذا التناقض، لأننا نؤمن بأن القرآن منزل من خالق السماوات والأرض وواضع سننه ومدبّر شئونه وأن الحقائق العلمية التي تكتشف هي من صنعه ووضعه في الكون، ولا يليق بحكمة الحكيم الخبير أن يخلق شيئا على هيئة معينة ثم

يخبرنا بخلافها، حاشاه سبحانه وتعالى عن ذلك علوّا كبيرا أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ 14] الملك: 14[، قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً 6] الفرقان: 6.[

- 7]اتباع المنهج القرآني في طلب المعرفة[

من البر والحكمة سلوك سبل الأسباب للوصول إلى حقائق المعرفة» دخول البيوت من أبوابها «وعدم تعجل النتائج بأن نعلم أن الأمور مرهونة بأوقاتها وأن خير مفسر للقرآن الزمن، وأن نضع نصب أعيننا قوله تعالى وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] البقرة: 189[، فإنه التوجيه القرآني لسلوك المنهج الذي ينبغي أن يسلك في هذه المجالات.

وبما أن أمور الكون قائمة على سنن خلقها الله سبحانه وتعالى، وسيّر الكون بموجبها، فإن من تعرّف على هذه السنن أمكنه تسخيرها لمصالحه والإفادة منها في تيسير سبل العيش وإحراز التقدم المادي، بغضّ النظر عن معتقده وسلوكه، وذلك بمقدار ما يشاء الله ويخص بذلك من يريد.

وهذه سنة الله في أمور الحياة الدنيا، فهي تعطى لمن أحبه الله ولمن لم يحبه، أما الآخرة والهدايات الربانية فلا تعطى إلا لمن يحبه الله .وإلى مثل هذا تشير الآيات الكريمة :مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً 18 وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً 19 كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً 20] الإسراء: 18 - 20 .]

الجوانب التي تندرج تحت مسمى الاعجاز العلمي او التجريبي :

- **-بدء الكون ومصيره**
- **-السماء**
- **-السماوات والأرض**
- **-الأرض**
- **-الشمس والقمر**
- **-النجوم**
- **-الجبال**
- **-البحر**
- **-الظواهر الجوية (الرياح - السحب - المطر - الرعد والبرق(**
- **[+]الحيوان**
- **-الإنسان**
- **-الرحم والنشأة الجنينية**
- **[+]النشأة الجنينية**
- **-تحقيق الشخصية"البصمات"**

- [+]الحساسية الجلدية

[وجه دلالة الإعجاز العلمي على مصدر القرآن الكريم]

إن الإشارات التي وردت في ثنايا آي الذكر الحكيم تتحدث عن بديع صنع الخالق سبحانه وتعالى في هذا الكون الفسيح في مختلف مجالاته، وتتحدث عن النفس الإنسانية وأعماقها وعواطفها ومشاعرها.

بلغت هذه اللفتات والإشارات من السعة والشمول مبلغا لا تستطيع أجيال من العلماء الإحاطة بها مهما أوتوا من وسائل وإمكانيات وجهود وطاقات، فهي من الشمول بحيث تمتد في البعد الزمني إلى أصل الكون بمجراته وأفلاك نجومه وكواكبه.

ومن الإحاطة بحيث تتعرض للأنظمة المرئية وغير المرئية التي تسير عليها الكائنات الحية والجمادات من رياح، وسحب، وبحار، ونبات، وحيوان، وإنسان، وبلغت هذه الإشارات والتلميحات مبلغا من الدقة بحيث تعجز أحدث الوسائل والمختبرات العلمية عن متابعة هذه الحقائق، وكما رأينا من الأمثلة المتقدمة يقف العلم التجريبي الحديث فاغرا فاه عند بعض هذه الحقائق الدقيقة.

إن سوق القرآن الكريم هذه الحقائق بهذه السعة والشمول، وبهذه الدقة المتناهية يحمل كل صاحب عقل منصف إلى القول بأن هذا تنزيل العزيز الحكيم الذي أحاط بكل شيء علما.

إن البشرية كلها عاجزة عن الإحاطة بهذه الحقائق والوصول إلى ماهيتها وأسرارها، فهل يعقل أن يكون هذا القرآن من عند رجل أمي عاش في بيئة أمية لم يذكر التاريخ عن أسلافها تقدما في فنون علوم الكون أو النفس البشرية؟.

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَزُوراً (4) وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً] (6) الفرقان: 4 - 6.]

عنوان المحاضرة - الإعجاز التّشريعيّ

Lecture Title - Legislative Miracles

الحديث عن الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم حديث عن النظام الخالد للكون وما فيه، فالذي أبدع الكون من العدم وأوجد فيه من المخلوقات ما لا يحصى عددا وجعل أشرف هذه المخلوقات وأكرمها بني آدم، قد اختار لهذا المخلوق المعزز دستورا في الحياة ينظم سلوكه في الدنيا وعلاقته بنفسه وبخالقه سبحانه وتعالى، ورتب نتائج دنيوية وأخروية على نتيجة سيره وفق هذا الدستور الإلهي الكريم، حيث يحصل الإنسان على الطمأنينة والعزة والرفاه في الدنيا ويشعر بإنسانيته الحقة، ويدرك الحكمة الإلهية من خلقه وإيجاده وتفضيله على سائر المخلوقات، كما ضمن الله سبحانه وتعالى له السعادة في الآخرة استمرارا لسعادته الدنيوية:

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ] الأعراف: 32.]

واشتمل القرآن الكريم على الأنظمة التي يحتاجها البشر في حياتهم المعاشية ولم يدع جانبا من جوانب الحياة إلا كانت له نظرته الخاصة وتشريعه المستقل بحيث ينتج من مجموع أنظمته تشريع متكامل لمناحي الحياة كلها الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً] المائدة: 5.[

وينتج من تطبيقه على الناس أمة متكاملة الشخصية متميزة الملامح والسلوك عن سائر الأمم كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ] آل عمران: 110.[

إن الجانب التشريعي والخلقي في القرآن الكريم لآية وأيما آية على كون القرآن من عند الله وليس من عند البشر.

فالأسس الأخلاقية والقواعد التشريعية السامية التي تضمنها القرآن الكريم تخرج عن طوق البشر إحاطة ودقة وشمولا.

يدل تاريخ الإنسانية على أنها لم تنجب مفكرا أو فيلسوفا أو مصلحا اجتماعيا استطاع أن يضع نظاما كاملا للعلاقات الداخلية والخارجية لدولة ما، وكم من حكيم حاول ذلك، ولكن نظرياته ظهر فيها النقص أحيانا والتناقض طورا ومجانبة الصواب كثيرا، وثار على بعضها أتباعه في حياته أو بعد مماته.

ولا تزال هذه الظاهرة تتكرر إلى يومنا هذا في الأمم والشعوب التي لا تدين دين الحق، علما أن هذه النظريات لا تتناول إلا جانبا واحدا بل وضيقا من جوانب الحياة الاجتماعية، أما أن توضع نظرية متكاملة الجوانب للكون والمخلوقات والأفراد والجماعات في شتى صورها وحالاتها، فهذا مما يخرج من طاقة البشر مهما أوتوا من علم وحكمة، فما بالك إذا ورد مثل هذا النظام الكامل على لسان رجل أمي لم يشتهر في حياته بالاطلاع على كتب وفلسفات الأقدمين، ولم يعرف بالأسفار العلمية والتجوال في الآفاق بحثا وراء الأنظمة والتشريعات.

وبقيت تلك العلوم والمبادئ قرونا وأجيالا كلما مر عليها دول وأزمان وتناولتها الأيدي والأفكار بالبحث والنقاش والنقد والتمحيص ظهر بريقها واشتد لمعانها وأدرك المنصفون من أهل كل عصر ربانية مصدرها وجدارة تطبيقها وصلاحها دون غيرها لكل زمان ومكان.

إن المبادئ السامية التي وردت في الشريعة الإسلامية وتضمنها القرآن الكريم برهان ساطع على مصدر القرآن الكريم ودليل صدق على نبوة حمد صلّى الله عليه وسلم وأنه تلقاها من لدن الحكيم الخبير، ليكون رحمة للعالمين.

وسنلقي في مبحث الإعجاز التشريعي بعض الأضواء على جوانب من الهدايات القرآنية في:

أولا :العقيدة.

ثانيا :الشريعة.

ثالثا :الأخلاق.

وسنكتفي بالعموميات في كل ذلك، لأن التفاصيل تستغرق عمر الأجيال ولا زال علماء الأمة الإسلامية يستنبطون تشريعاتهم وأنظمة حياتهم وحلول مشاكلهم المستجدة من آي الذكر الحكيم، وسيبقى الدستور الخالد نبراسا في حياة المسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

]أولا: في العقيدة[

جاء القرآن الكريم بعقيدة سهلة خالية من التعقيد ملائمة للفطرة الإنسانية تملأ النفس طمأنينة وارتياحا، والقلب نورا وانشراحا، والعقل قناعة.

فقد تولى القرآن الكريم توضيح العقيدة الإسلامية بأسلوب عذب جذاب لا يمكن لتاليه أو سامعه إلا أن يستجيب لنداء الفطرة ومقالة الحق بأنه تنزيل من حكيم حميد:

- 1ففي مجال بيان توحيد الله سبحانه وتعالى والاستدلال عليه من خلال مخلوقاته وآثار الإبداع في خلقه- وهي الطريقة الفطرية للإقناع والإتباع -يقول تعالى *:إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) فالِقُ الْإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99) وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَصِفُونَ (100) بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102) لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103) قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ] (104) الأنعام: 95 - 104.[

ورد القرآن شبه المنحرفين وزيغ الزائغين عن عقيدة التوحيد بالبراهين العقلية الدامغة، يقول تعالى :قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا] (42) الإسراء: 42 [لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ] (22) الأنبياء: 22 [مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91) عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ] (92) المؤمنون: 91 - 92.[

- 2وقرر القرآن الكريم وحدة الرسالات السماوية في أهدافها ومنطلقاتها ووسائلها، وإن اختلفت في جزئيات تشريعاتها، يقول تعالى:

كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيما اخْتَلَفُوا فِيهِ وَما اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِما اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ] (213) البقرة: 213.[

وبين القرآن الكريم أن اختيار الرسل من البشر ومن جنس أقوامهم وبألسنتهم سنّة الله في الرسالات إذ لا تتحقق الغاية من إرسالهم على الشكل الأمثل إلا بتلك المواصفات، كما أن تأييدهم بالمعجزات أمر لازم لإقامة الحجة على الناس، يقول تعالى :وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ] فاطر: 24 [وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِ لْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ] (36) النحل: 36 [وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] (4) إبراهيم: 4 [وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلَّا أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا (94) قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا] (95) الإسراء: 95.[

ويوضح القرآن الكريم أن مهمة الرسل تبليغ رسالات ربهم إلى الأقوام بعد تطبيقها العملي في حياتهم الخاصة، وليس من مهماتهم حمل الناس على الدخول في دينهم أو إنزال العقوبات بهم، يقول تعالى :قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ (57) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ] (58) الأنعام: 57 - 58.[

ويقرر القرآن أن الميثاق قد أخذ على الأنبياء وأقوامهم أن يؤمنوا بخاتم النبيّين ويجاهدوا معه لنصرة دعوته إن أدركوا زمان بعثته التي يتم بها صرح النبوات، يقول تعالى:

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ] (81) آل عمران: 81.[

ويقرر القرآن الكريم أن الإيمان برسل الله جميعا وبما جاءوا به من عند الله من أركان الإيمان وأساسياته، يقول تعالى :قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ

النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ] (136) البقرة: 136 [إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا (150) أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً] (151) النساء: 150 - 151.[

- 3وقرر القرآن الكريم عقيدة البعث بعد الموت والحساب والجزاء يوم القيامة أوضح تقرير وأدقه، فاليوم الآخر من مستوجبات العدل الإلهي المطلق، فلا بد من التمييز بين المحسن والمسيء والصالح والطالح، يقول تعالى :أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ] (36) القلم: 35 - 36 :[أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ] (28) ص: 28.[

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ] (116) المؤمنون: 115 - 116.[

ولما كان البعث بعد الموت من الأمور الغيبية التي لا تدرك آثارها فقد أكثر القرآن الكريم من ضرب الأمثال والحجج العقلية والقياس على الأمور المشاهدة المحسوسة.

يقول تعالى :وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً * (49) قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً (50) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتى هُوَ قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (51) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا] (52) الإسراء: 49 - 52.[

وقال تعالى :وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81) إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ] (83) يس: 78 - 83.[

وقال تعالى :وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] (39) فصلت: 39.[

إن الإيمان بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء عنصر مهم في تقويم سلوك الإنسان في الحياة الدنيا ودفعه نحو الكمالات النفسية والتحلي بالفضائل والابتعاد عن الرذائل، كما أنه عزاء لأهل الخير والصلاح إن فاتتهم سراء أو أصابهم الضر في الحياة الدنيا.

لذا نجد القرآن الكريم يصف منكري البعث بالخسران: ال تعالى :قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ(31) .

هذه أسس العقيدة الإسلامية :الألوهية- الرسالة- المعاد- وقد فصلها القرآن الكريم أوضح تفصيل وأبلغه، ولم يدع مجالا من مجالاتها إلا وقرره أحكم تقرير.

ولكل من هذه القضايا مستلزمات ومقومات عرضها القرآن الكريم أيضا فمن مقتضيات الإيمان بالألوهية :الإيمان بأسماء الله وصفاته وما يجب لله سبحانه وتعالى من صفات الكمال المطلق وتنزيهه عن صفات النقص.

والرسالة تستلزم الإيمان بالكتب التي تضمنت الرسالات وبالأشخاص الذين حملوها، وما يجب توفره فيهم من صدق وأمانة وفطانة وعصمة، كما تستلزم الرسالة الإيمان بالملائكة الذين هم السفراء بين عالم الغيب والشهادة الأمناء على تنفيذ حكم الله في خلقه.

والإيمان بالمعاد يستلزم الإيمان بما ورد في هذا اليوم من موقف ومحشر وميزان وصراط وجنة ونار، وما أعد لأهل الجنة من نعيم وما يلقاه أهل النار من الجحيم.

وقد تناول القرآن كل ذلك تفصيلا، فكانت العقيدة الإسلامية الراسخة النقية الصافية الجلية المشرقة من غير تعقيد أو غموض، أو حيرة واضطراب :آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ] (285) البقرة: 285.[

]ثانيا: في الشريعة[

لقد أرسى القرآن الكريم دعائم المجتمع الإسلامي على أسس متينة وشرع لنا من التشريعات المستمدة من العقيدة الراسخة ما يوفر له السعادة والطمأنينة ويسمو به نحو الكمال البشري. وتمتزج هذه التشريعات بالعقيدة امتزاج الروح بالجسد، ويمكن تلمس هذه النتائج العظيمة من خلال التطبيق الجاد المخلص لأحكامه، وأحداث التاريخ التي ملئت بها بطون الكتب من سير السلف الصالح خير شاهد على مدى نجاح هذه التشريعات في توفير السعادة والطمأنينة والرفاه.

وفيما يلي إشارة سريعة إلى جملة من هذه الأسس والتشريعات التي تضمنها القرآن الكريم:

- 1]الرابطة بين أفراد المجتمع الإسلامي رابطة الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين[

إن الأساس الذي يبنى عليه هيكل المجتمع الإسلامي هو أن رابطة العقيدة هي التي تشكل الآصرة التي تربط الأفراد في المجتمع، وليس للرابطة الوطنية أو القومية أو القبلية

أو الجنس أو اللون أي أثر في المجتمع الإسلامي.

وارتباط المسلم بالوطن والقوم بمقدار ارتباط هذا الوطن وأهله بالإسلام، فولاء المسلم لعقيدته أولا وآخرا، لذا نجد القرآن الكريم ندد بمن آثر الوطن والمسكن والأهل والأقارب على العقيدة، وامتدح الذين ضحوا بكل ذلك في سبيل عقيدتهم، يقول تعالى :لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] (22) المجادلة: 22.[

وقال تعالى :وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً] (66) النساء: 66.[

وقد تضمن القرآن الكريم من أحكام العبادات والمعاملات والحدود والقصاص ما يقوي أواصر الجماعة ويثبت روح التعاون والتعاضد بين أفرادها ويعودهم على النظام والطاعة والانقياد للقيادة المؤمنة العليا في المجتمع الإسلامي، ويتجلى ذلك في تشريعات الصلاة والزكاة والصوم والحج....

ففي الصلاة تربية الفرد على النظام وتلقي الأوامر من الرئيس المباشر) الإمام(، ولعل هذا المعنى أثر في نفس عدو الله رستم في القادسية عند ما كان يراقب الجيش الإسلامي وهو يؤدي صلاة الجماعة صفوفا خلف الإمام حيث قال) :لقد مزق عمر كبدي، يعلم الأعراب النظام.(

وفي الزكاة قضاء على الحقد والبغضاء بين الطبقات وإشعار بتكافل المسلمين وتضامنهم.

وفي الصوم إشعار بوحدة الأمة وتعويد لها على الصبر وقوة الإرادة وتنمية مراقبة الله تعالى في السر والعلن.

وفي الحج إبراز المساواة بين الناس وتذكيرهم بالموقف الأكبر وإظهار للمساواة بين المسلمين، ووحدة أمتهم الإسلامية على اختلاف ألوانها وأجناسها وتحقيق لقوله تعالى :إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ] (92) الأنبياء: 92.[

إلى جانب تقوية صلة الفرد بالله سبحانه وتعالى وتزكية روحه والتسامي على الأهواء والنزوات المنحطة.

قرر القرآن الكريم من التشريعات التفصيلية للفرد والمجتمع ما يقطع دابر الشقاق والخلاف بين المسلمين، وإن وقع شيء من ذلك ضيق هوّة النزاع بين المتخاصمين للحيلولة دون انتشاره واستمراره.

فمن أجل ذلك جاءت التشريعات لصيانة دماء الناس فيما بينهم فشرع القصاص في النفس والأعضاء بقوله تعالى:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثى بِالْأُنْثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ] (178) البقرة: 178.[

وَكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ] (45) المائدة: 45.[

وشرع من الأحكام ما صان أعراض الناس وحذر من انتهاكها ولم يبحها إلا بعقد الزوجية أو ملك اليمين، يقول تعالى :الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (2) الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ] (3) النور: 2 - 3.[

كما سن القرآن الكريم من التشريعات ما يحفظ أموال الناس ويمنع من الاستيلاء عليه عن طريق الغش والخداع والنصب والإكراه وحيل الربا وأنواع الاستغلال الحرام، يقول تعالى :وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ وَتُدْلُوا بِها إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ] (188) البقرة: 188.[

- 2]الأسرة ومكانتها في القرآن[

أولى القرآن الكريم الأسرة اهتماما كبيرا باعتبارها اللبنة الأولى من لبنات الأمة، ومن البدهي أن البناء يستمد قوته من قوة لبناته وضعفه من ضعفها، فكلما كانت الأسرة قوية متماسكة ذات مناعة تجاه الأوبئة الخلقية والانحرافات الاجتماعية بني صرح الأمة قويا منيعا وإذا كانت الأسرة ضعيفة منحلة كان انحلال الأمة وتفسخها نتيجة طبيعية لذلك، لذا لم يترك القرآن الكريم جانبا من شئونها إلا وتوجه له بالتوجيه والتسديد:

أ- جعل القرآن الكريم الزواج أصل نشوء الأسرة ومن هنا أخذ الزواج نفس العناية التي أخذتها الأسرة وأسبغ عليه نفس القدسية والجلال، يقول تعالى :وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ] (72) النحل: 72.[

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] (21) الروم: 21.[

وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً (20) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً] (21) النساء: 20 - 21.[

ب- ولما كان للزواج هذه الأهمية فقد عني القرآن الكريم بجملة من الوسائل التي من شأنها إذا روعيت أن تقوي الحياة الزوجية وتدعم استمرارها وتحول بين تدهورها وانحلالها.

من هذه الوسائل ما يجب مراعاته في الزواج منذ اللحظة الأولى، لحظة التفكير فيه والتوجيه إليه والعزم عليه، ومنها ما يجب مراعاته بعد أن يتم عقد الزواج وتسير الحياة الزوجية في طريقها، ومنها ما يجب مراعاته حين الشعور بمبدإ الزعزعة والاضطراب فترجع النفوس عن غيها وتقف في جانب المحافظة ودوام الاتصال بدلا من الاندفاع في الغضب والانحلال.

أما إذا لم تتسع ساحة الدار للشقاق والخلاف بين الزوجين فقد أمر الله بعرض النزاع على المهتمين بشئون الزوجين من القرابة لإيجاد الحل الذي يحفظ على الزوجين ودّهما ويعيد المياه إلى مجاريها.

وإن كانت الأخرى فلكي يمضي كل في سبيله وقد عرف ما له وما عليه فلا ضيم ولا ظلم..

وهكذا لو تتبعنا المسيرة القرآنية مع الأسرة لطال بنا المسير ونحن نستعرض التشريعات الحكيمة في حالات الوفاق والاستمرار، وفي حالات الطلاق والانفصال، وفي حالة الحياة وبعد الممات.

- 3]الدولة والحكومة في القرآن[

ومن الموضوعات اللافتة للنظر في القرآن الكريم تشريعاته المتعلقة بشئون السلطة والسياسة الداخلية والخارجية للدولة الإسلامية في السلم والحرب، لقد أقام الإسلام دولة لم يشهد التاريخ لها مثيلا تحققت فيها كل مقومات السعادة والأمن والعدل وكل مظاهر القوة والعظمة والمجد، وذلك نتيجة تطبيق أحكام القرآن الكريم، فالدولة تستمد عظمتها ومجدها من المبادئ التي تحملها إلى الإنسانية وتسهر على تطبيقها بنزاهة وعدالة .ونشير إلى جملة من هذه المبادئ الأساسية التي قامت عليها الدولة الإسلامية:

أ -الشورى:

لقد قرن القرآن الكريم بين الشورى وبين عناصر الشخصية المؤمنة مثل الصلاة والزكاة فهي من المقومات الأساسية في تكوين شخصيته أيضا.

يقول تعالى :وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37) وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (38) وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ] (39) الشورى: 37 - 39.[

ولم يحدد القرآن الكريم طريقة المشورة ووسيلتها توسعة ورحمة لأن الوسيلة قد تختلف من جيل إلى جيل.

إلا أن السوابق الدستورية في عصر رسول الله صلّى الله عليه وسلم والخلافة الراشدة تبين أنهم كانوا يوسعون من أبعادها بقدر الإمكان، حتى تشمل فئات المسلمين وطبقاتهم، وأهل الاختصاص والرأي فيهم، وإذا ما انتهت الشورى إلى رأي أو قرار وأجمع أهل الحل والعقد على أمر وجب على جميع المسلمين طاعتهم .

ب -العدل المطلق بين الرعية:

فلا وجود في الدولة الإسلامية للمتنفذين الذين يتسلطون على حقوق الضعفاء، بل الناس سواسية، الحاكم والمحكوم، القوي والضعيف، الصغير والكبير، أمام القضاء والحكم. ومن هنا إقامة العدل بين الناس من أوليات الدعوة الإلهية .يقول سبحانه وتعالى :فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ

كِتابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ

] (15)الشورى: 15.[

ويبين القرآن الكريم أن العدل في كل الظروف وحيال جميع المواقف وتجاه كل إنسان يجب أن يطبق سواء كانوا من الأقرباء أو البعداء، وسواء كانوا من الأصدقاء أو الأعداء، من المحبين أو المبغضين.

يقول تعالى *:إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ] (90) النحل:

*.[90يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلى بِهِما فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً] (135) النساء: 135.[

فلا تفرقة بين الأشخاص في تحقيق العدالة، وإذا حوبي القريب المحب على حساب العدالة، وأبغض البعيد وظلم بسبب العداوة أو الجنس أو اللون اضطرب شأن الدولة واختلت المعايير والقيم فيها فقوض أركانها.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ] (8) المائدة: 8.[

ج -التكافل الاجتماعي:

يبين القرآن الكريم أهمية التكافل الاجتماعي في بناء الدولة الإسلامية إذ إن شعور أفراد الأمة الإسلامية بمسئوليتهم جميعا عن تصرفات الأفراد، وأن كل واحد منهم حامل لتبعات أخيه ومحمول على أخيه، فيسأل عن نفسه ويسأل عن غيره.

وهذا قانون من قوانين الاجتماع الراقي، ومن المقومات التي توفر الحياة السعيدة الكريمة للأمة وتوفر لها المناخ الملائم لأداء دورها في الحياة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى شعبتي التكافل الاجتماعي ودعا إلى القيام بهما:

أما الشعبة الأولى فهي الجانب الأدبي في التكافل. وهي تبرز تكافل المسلمين وتعاونهم على إحقاق الخير وتأييده ونصرته وكسر شوكة الباطل واجتثاث جذوره والقضاء عليه. إنه دعامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول تعالى :وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] (71) التوبة: 71.[

إن سنّة الله في المجتمعات هي أن أفراد المجتمع إن لم يسندوا أولي الأمر في محاربة الباطل، وإقامة العدل، والأخذ على يد الظلمة والفسقة، إن لم يقوموا بما كلفهم الله به استشرى الباطل وعجز السلطان عن تنفيذ الأحكام فكان مصير الأمة الدمار والخراب فَلَوْلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانُوا مُجْرِمِينَ] (116) هود: 116.[

وأما الشعبة الثانية في التكافل الاجتماعي فشعبة مادية. وسبيلها على مستوى الفرد في الجماعة الإسلامية هو أن يمد يد المعونة في حاجة المحتاج وإغاثة الملهوف وتفريج كربة المكروب وتأمين الخائف وإطعام الجائع، وقد حث القرآن الكريم على هذا التعاون المادي واستنهض الهمم فيه، يقول جل جلاله *:لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمالَ على حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقابِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ] (177) البقرة: 177.[

- 4]الأسس التي بنيت عليها علاقات الدولة الإسلامية بغيرها[

ذكر القرآن الكريم المبادئ التي يحدد المسلمون بموجبها علاقتهم بغيرهم والنظرة القرآنية إلى هذه العلاقات متمشية مع مبادئه السامية في نظرته إلى الكون والإنسان عامة. فمن سنن الله في المجتمعات الإنسانية سنة التدافع، فالحق لا بد له من قوة تسند مسيرته، وإلا تغلب عليه الباطل وأهله وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ] البقرة: 251.[

لذا كانت نظرة القرآن الكريم إلى الإنسانية أنها مأمورة بالسير في الكون على منهج خالق الكون، فإذا اضطرب أمرها واندثرت معالم الحق منها كانت مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام بيانه لها، فإن صممت على السير في متاهات الحياة على غير بصيرة اقتضت مصلحتها أن تعاد إلى الطريق السوي بالقوة.

فالنظرة الإسلامية إلى الإنسان نظرة شفقة وعطف ورحمة، والمسلمون حين يدعون الناس إلى الإسلام إنما يريدون لهم الخير والفلاح، فإن أصر الناس على معاندة الحق وتنكب طريق الفلاح كانت النظرة الإسلامية العلاجية لمثل هذه الحالات إعلان الجهاد في سبيل إحقاق الحق وإزالة العقبات أمام الدعوة والدعاة ورفع الظلم والاضطهاد عن المستضعفين .وإلى هذه

الغايات تشير الآية الكريمة :أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ] (40) الحج: 39 - 40.]

]ثالثا: في الأخلاق[

لقد أولى القرآن الكريم الأخلاق أهمية كبيرة، وحث على التمسك بفضائلها بمختلف الأساليب، وحذر من ارتكاب مرذولها بشتى الطرق، ونظرة القرآن إلى الأخلاق منبثقة أيضا من نظرته إلى الكون والحياة والإنسان. وإذا كانت العقائد تشكل أركان الصرح الإسلامي فإن التشريعات تكون تقسيمات حجراته وممراته ومداخله، والأخلاق تضفي البهاء والرونق والجمال على الصرح المكتمل، وتصبغه الصبغة الربانية المتميزة.

وإذا كانت العقيدة الإسلامية تشكل جذور الدوحة الإسلامية وجذعها فإن الشريعة تمثل أغصانها وتشعباتها، والأخلاق تكون ثمارها اليانعة وظلالها الوارفة ومنظرها البهيج النضر:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ] (25) إبراهيم: 24 - 25.]

لقد عرضت آيات القرآن الكريم الدعوة إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة من خلال الالتزام بالعقيدة الإسلامية ومن خلال الأوامر الربانية، لأن الله الذي خلق الإنسان وأودع فيه الفطرة المستقيمة أودع فيه أيضا العواطف والمشاعر والغرائز والحاجات ووضح المنهج الأمثل الذي يحافظ على استقامة الفطرة، وينمي فيها نوازع الخير، ويحد من أهواء النفس والشهوات ويهذب الغرائز ويسمو بها ويوجهها إلى الكمالات الإنسانية :إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى] النجم: 32.]

ولقد تنوعت الأساليب القرآنية في عرض الأخلاق والحث على التحلي بها فكثيرا ما يكرر القرآن الكريم خلقا من الأخلاق أو صفة مستمدة منه ويستعملها استعمالات شتى. وما ذاك إلا بهدف ملء أسماع المؤمنين من هذه الصفة، فإذا ما سيطرت عليهم استشعروها في أنفسهم واتصفوا بها في سلوكهم ونفروا من ضدها، وهذا أسلوب من الأساليب التربوية الرفيعة.

خذ مثلا على ذلك خلق) العزة (فقد كرر القرآن الكريم وصف ذات الله القدسية بصفة العزيز ما يقرب من تسعين مرة.

ووصف به الرسول والمؤمنين في قوله تعالى :وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ] المنافقون: 8.]

وقال تارة أخرى عن عباد الله الذين يحبهم ويحبونه :أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ] المائدة: 54.]

وتارة يحصرها في الخالق سبحانه يهبها لمن يشاء :قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] (26) آل عمران: 26.]

وفيما يلي جملة من هذه الأساليب من خلال آيات الذكر الحكيم:

أ- تعرض كثير من الآيات الكريمة أمهات الأخلاق الفاضلة وتدعو إلى التمسك بها لأنها أمر إلهي، وفي التمسك بها فلاح البشرية وسعادتها والفوز برضوان الله سبحانه وتعالى. وبالنص على هذه الأمور العامة وكأن الهدايات القرآنية ترسم الخطوط العريضة في خارطة السلوك البشري وما ينبغي أن يكون الحال عليه.

فنقرأ مثلا قوله تعالى:

*إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ] (91) النحل: 90 - 91.]

والبر والتقوى مرتبتان لا يدركهما إلا من اتصف بصفات عظيمة وارتفع عن الشهوات وتسامى في العواطف والمشاعر، وكانت منطلقاته في ذلك الإيمان الراسخ بالله واليوم الآخر، يقول تعالى *:لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقابِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا

وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ] (177)البقرة: 177.]

فهذه الآية الفذة قد جمعت بين البر في العقيدة والبر في التشريعات والبر في الأخلاق، وهي قوام التقوى والفلاح في الدارين :وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ] الأعراف: 96.]

]دلالة الإعجاز التشريعي على مصدر القرآن الكريم[

إن المتعمق في دراسة التشريعات الإسلامية في مختلف مناحي الحياة يدرك إدراكا واضحا وجليا أن هذه التشريعات تهدف إلى هداية الإنسان في حياته الدنيا إلى أقوم السبل التي تحفظ للإنسان إنسانيته وتطلق طاقاته الإيجابية نحو الكمالات البشرية، وتحفظ له نظرته المستقيمة، وتوفر له التوازن الدقيق في متطلباته الجسدية المادية وأشواقه الروحية، مع انسجام تام مع المحاكمات العقلية، مما يثمر الطمأنينة النفسية والسعادة في حياته الدنيا، وهي السبيل إلى الحياة الباقية في الدار الآخرة.

إن تاريخ البشرية لم يحدثنا عن مصلح اجتماعي أو فيلسوف عبقري أنه وضع نظام حياة لشعب من الشعوب بمختلف فئاته وتنوع مجالاتها بل حاول كثير من المصلحين أن يضعوا قوانين تنظيمية لدولة من الدول. ولكن محاولاتهم كثر الانتقاد عليها في حياتهم وبعد مماتهم لأنها كانت متأثرة ببيئة واضعها، وقاصرة عن استيعاب المشاكل لمجتمعهم، وأوجدت الجور والحيف على بعض الفئات لمصلحة آخرين.

وما قانون حمورابي وصولون .. وغيرهم، وما أخذ عليها وما نتج من تطبيقاتها قديما إلا مظهر من المظاهر التي ابتلي بها الإنسان في مراحل شقائه. ولا زالت هذه الظواهر تتكرر في المجتمعات التي لا تدين دين الحق، فالمجتمعات الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية والوثنية تكتوي بمثل هذه التجارب المريرة إلى يومنا هذا.

إن التشريعات الإسلامية التي جمعت بين الروح والمادة فأشبعت كلا منهما في الإنسان بما يناسبها، ووفرت السعادة والطمأنينة في الحياة الدنيا وأزالت القلق عن النفوس من المستقبل مع مراعاة الفطرة وتلاؤمها معها، لدليل على أن أحدا من البشر لا يستطيع أن يدرك هذه المجالات أو يحيط بها، وهي برهان ساطع على أنها منزلة من خالق الإنسان الذي أودع فيه هذه الطاقات والقدرات والاستعدادات فأنزل ما ينظمها جميعا ويوجهها لعبادة الخالق سبحانه وتعالى. وتكون الدلالة أوضح والبرهان أظهر عند ما تعلم أن الذي نزلت عليه كان أميا لم يتلق العلم على يد أحد من البشر، ولم يعرف بتجواله في الآفاق بحثا عن النظريات والدساتير الإصلاحية.

عنوان المحاضرة - الإعجاز الغيبيّ

من وجوه الإعجاز للقرآن الكريم التي ذكرها العلماء الإعجاز بما فيه من أنباء الغيب ويقصدون بذلك كل ما كان غائبا عن محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يشهد حوادث الواقعة ولم يحضر وقتها، فيدخل في الغيب بهذا المفهوم كل ما ورد في القرآن الكريم عن بداية نشأة الكون وما وقع منذ خلق آدم عليه السلام إلى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من

عظيمات الأمور ومهمات السير، وكذلك يشمل ما غاب عن محمد صلى الله عليه وسلم في وقته من الحوادث التي كانت تحدث ويخبر بها بطريق الوحي، كإخبار الله سبحانه وتعالى له بما يكيده اليهود والمنافقون، ويشمل أيضا ما تضمنه من الإخبار عن الكائنات في مستقبل الزمان.

ولشمول كلمة الغيب كل هذه المعاني سيكون بحثنا في هذا الفصل في جوانب ثلاثة وفي ثلاثة مباحث:

المبحث الأول :غيب الماضي.

المبحث الثاني :غيب الحاضر.

المبحث الثالث :غيب المستقبل.

]غيب الماضي[

لقد سمى الله سبحانه وتعالى الأخبار عن الأمم السابقة غيبا، وأشار إلى وجه دلالتها على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى كون القرآن الكريم إنما نزل بوحي من الله سبحانه وتعالى، فكثيرا ما يفتتح القرآن القصة أو يختمها بالإشارة إلى أن هذه الأمور ما كان لرسول الله طريق إلى العلم بها إلا عن طريق الوحي من الله تعالى شأنه وجلت قدرته، فمثلا بعد ذكر قصة مريم وكفالة نبي الله زكريا لها يقول تعالى :ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ] (44) آل عمران: 44[، فإن هذا النص يدل على أن القرآن من عند الله، وعلى أن ذلك النوع من العلم ما كان عند محمد صلى الله عليه وسلم، وليس له به دراية.

ويقول عز من قائل بعد قصة نوح عليه السلام :تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ] (49) هود: 49 [وهذه أيضا إشارة واضحة إلى أن هذا العلم من عند الله، وأنه لم يكن معروفا عند العرب وما كانوا يتذاكرون به.

ويقول جلت حكمته بعد قصة يوسف وذكر دقائقها وتفصيلاتها وعظاتها وعبرها :ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ] (102) يوسف: 102.[

وقبل عرض قصة موسى عليه السلام يقول عز من قائل :نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] (3) القصص: 3[، وبعد انتهائها يقول جل ثناؤه :وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَلكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ] (45) القصص: 44 - 46.[

إن ورود أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية بهذا الشكل المفصل الدقيق في القرآن الكريم لدليل على أنه وحي من الله سبحانه وتعالى وليس من عند البشر، لأن من ترعرع في بيئة مثل البيئة التي نشأ فيها محمد صلى الله عليه وسلم لا يمكنه أن يطلع على مثل هذه الأمور التي لا سبيل للحصول عليها إلا بالتلقي، ولم يكن في تلك البيئة

الأمية من يعرف هذه الأنباء على هذا الوجه الدقيق.

وإن وجد في ذلك العصر في أطراف الجزيرة العربية بعض أهل الكتاب فلقد كانوا منغلقين على أنفسهم، وليس لهم تأثير فيمن حولهم، وكان المتخصص منهم في علم الكتاب- على قلتهم- يرى في اطلاعه على جوانب من قصص السابقين ميزة عظيمة له، فكان ضنينا به حتى لا ينافس على مركزه.

وكانوا يعرفون قرب مبعث الرسول الخاتم للأنبياء والمرسلين، فكان من جملة ما يتحققون به من صدقه سؤاله عن القرون الغابرة ومصائر الأمم السابقة، كما ورد في سبب نزول سورة الكهف، حين سألت قريش اليهود أن يدلوهم على أمور

يتحققون بها صدق محمد صلى الله عليه وسلم، فلما أجابهم القرآن الكريم ووافق ما عندهم من أنباء بل فاقها دقة وتفصيلا، وصحح ما التبس عليهم أمره واختلط عليهم وقائعه، أو حرفوه وبدّلوه عن قصد منهم، أو كتموه تعمية وتضليلا ووقف موقف التحدي منهم، وبيّن الحق والصواب من بين ركام الباطل الذي ألقوه عليه، علموا أن هذا لم يكن لبشر أن يدركه بالاطلاع والتتبع والاستقراء مهما أوتي من علم وحكمة ودراسة لسير الأولين فما بالك إذا كان الذي جاء به أميا ونشأ في بيئة أمية كما أخبر عنه ربه جل جلاله :وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ] (48) العنكبوت: 48.[

]أهداف غيب الماضي[

من خلال تتبع القصص القرآني وما ورد فيه من أنباء الأمم السابقة ندرك أن الهدف الأساس من هذا النوع من الغيب هو إثبات صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكثيرا ما يستدل القرآن الكريم على ذلك بالإشارة إلى مطابقة ما ورد في القرآن لما ورد في الكتب السابقة، كما في قوله تعالى:

وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ] (37) يونس: 37.[

وهناك أهداف تبعية لغيب الماضي مثل:

أ- تثبيت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإدخال الطمأنينة إلى قلبه أن منهجه هو منهج الأنبياء والرسل السابقين، وأن ما يلاقيه من عنت المشركين وعنادهم هو سنّة الله في جميع الأقوام .كما في قوله تعالى :وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ] (120) هود: 120.[

ب- تربية الأمة وتهذيبها من خلال العظات والعبر التي ترد في قصص السابقين كالإخلاص والتوكل في قصة إبراهيم عليه السلام، والبر والوفاء والطاعة في قصة إسماعيل عليه السلام والصبر والتحمل في قصة أيوب عليه السلام...

ج- تنمية المشاعر النبيلة والاستمتاع الوجداني والتسلية والترويح من خلال هذا الزاد الثقافي العظيم، كما في قوله تعالى بعد قصة يوسف عليه السلام لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] (111) يوسف: 111[، وقوله تعالى :وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ] (58) القصص: 58.[

د- إبراز وجه من وجوه الإعجاز البياني للقرآن الكريم، فالقصة الواحدة تتكرر أحيانا عدة مرات، وتحس في كل مرة بقضايا وأمور جديدة مع الحفاظ على أصل القصة، ومن غير تناقض في وقائعها، ويؤدى ذلك كله بأسلوب معجز، وهذا ليس في قدرة البشر، يقول الإمام فخر الدين الرازي ..) :إنه كان يذكر القصة الواحدة مرارا مختلفة بألفاظ مختلفة،

وكل ذلك مشابهة في الفصاحة، مع أن الفصيح إذا ذكر قصة واحدة مرة واحدة بالألفاظ الفصيحة عجز عن ذكرها بعينها مرة أخرى بألفاظ فصيحة، فيستدل بفصاحة الكل على كونها من عند الله تعالى لا من البشر .

]غيب الحاضر[

ويقصد بغيب الحاضر ما جرى في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم من حوادث لم يحضرها، ثم نزل القرآن متضمنا لها ومخبرا بحقيقة ما جرى.

وفي تنبيه القرآن الكريم الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه المؤمنون على الحقيقة وتوجيههم إلى ما ينبغي اتخاذه حيال الوقائع ضمان لسلامة سير الدعوة وتجنب لها عن الوقوع فيما يخطط لها أعداؤها من الكفار والمنافقين.

فالغاية الأساسية من غيب الحاضر هو تأييد الدعوة والأخذ بيدها والسير بها على بينة من أمرها، وتربية الأمة وتهذيبها.

وإن كان يؤخذ إلى جانب ذلك من هذا النوع من الغيب صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يبلغ عن ربه، حيث لم يكن له علم بما دار في غيابه، وما خطط وما جرى تنفيذه، حتى أماط القرآن الكريم اللثام عن هذه الأمور.

لذا لا نجد تنبيه القرآن الكريم عند الحديث عن هذه الحوادث الجارية، على إثبات أصل الرسالة كما كان الأمر عند الحديث عن غيب الماضي، حيث وجدناه كثيرا ما يجعل إخبار رسول الله عن أنباء الأمم السابقة دليل كونه من عند الله كما في قوله تعالى :تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ] (49) هود: 49].

ونذكر أمثلة على هذا النوع من الغيب، ليظهر لنا من خلالها الهدف الأساسي الذي رمى إليه هذا التوجيه الرباني، والأهداف اللاحقة أو التبعية التي تستفاد من سوق الخبر أو الحادثة.

وأغلب هذه الحوادث تتعلق بكشف خطط أعداء الله وكيدهم للقضاء على جماعة المسلمين، وإطفاء نور الله سبحانه وتعالى، فمن ذلك:

]أولا: ما جاء في شأن اليهود[

أ- لما أدرك أعداء الله صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يخبر، ومطابقة كثير من أحكام القرآن الكريم لما في توراتهم عمدوا إلى التوراة فحرفوا أحكامها، وجاءوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عنها وهم يقولون :إن قال بمثل ما في أيديكم فخذوه وإلا فاحذروا، روى أحمد ومسلم وغيرهما عن البراء بن عازب قال :مر على النبي صلى الله عليه وسلم يهودي محمم مجلود، فدعاهم فقال» :هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ «فقالوا: نعم، فدعا رجلا من علمائهم فقال» :أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ «فقال: لا والله، ولولا أنك ناشدتني بهذا لم أخبرك، نجد حد الزاني في كتابنا الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا زنى الشريف تركناه، وإذا زنى الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا :تعالوا حتى نجعل شيئا نقيمه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم» :إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه «فأمر به فرجم، فأنزل الله:

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إلى قوله :إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ يقولون ائتوا محمدا فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فاحذروه.(1)

ب- ومن هذا القبيل ما أخبر القرآن الكريم عن أساليبهم الملتوية في إدخال الوسواس والأحزان في قلوب المسلمين، يقول تعالى :أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ] (8) المجادلة: 8].

وذلك أن اليهود عليهم غضب الله كانوا إذا مر بهم رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكرهه، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن النجوى فلم ينتهوا، فأنزل الله :أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8) وأخرج أحمد والبزار، عن عبد الله بن عمرو أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم سام عليكم، ثم يقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول، فنزلت هذه الآية :وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ.(1)

]ثانيا: ما ورد في شأن المنافقين[

والفئة الثانية التي لم يقر لها قرار في المدينة بعد أن استوطنها المسلمون المهاجرون وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم وبين الأنصار هي فئة المنافقين، وكان يتزعمها عبد الله بن أبي ابن سلول، فكان هو وأتباعه يحاولون النيل من الإسلام ووضع بذور الشقاق والخلاف بين المسلمين من الأوس والخزرج، وبينهم وبين المهاجرين كلما وجدوا إلى ذلك

سبيلا، ولكن آيات القرآن الكريم كانت لهم بالمرصاد حيث كشفت عن أعمالهم وعن دخيلة أنفسهم فكان المسلمون على بينة من أمرهم.

أ- فمن الأساليب التي كان يلجأ إليها المنافقون حرب الأعصاب، ففي غزوة أحد قام رأس النفاق بشطر الجيش وسحب أنصاره منه وهم زهاء الثلاثمائة وهم يريدون بذلك إيقاع البلبلة والاضطراب في قلوب المسلمين، ولما هزم المسلمون في المعركة أبدوا شماتة الجبناء الأنذال، والقرآن يصور خستهم القائمة على الخبث والجبن ويبرز الحقيقة الكامنة فيهم، وهي أن ألسنتهم وصدورهم إنما تعيشان باستمرار على طرفي نقيض :وَما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (166) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا لَاتَّبَعْناكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ] (167) آل عمران: 166 - 167.[

وفي غزوة الخندق كان لنذالة المنافقين دورها، فقد حفر المسلمون الخندق حول المدينة ليكونوا في مأمن من هذا الهجوم ولكن المسلمين أصبحوا مع ذلك في خطر يتهددهم من داخل المدينة من قبل اليهود لا سيما بنو قريظة الذين غدروا بالعهد ليطعنوا المسلمين من الخلف ولم يكتف المنافقون بمهمة التثبيط حتى قال قائلهم :(1) كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط.

لم يكتفوا بهذا بل قاموا بدور الانسحاب مرة أخرى، والمعركة في أحد غير المعركة داخل المدينة، فإن كانوا قد انسحبوا من الميدان في أحد فكيف ينسحبون وهم في دور الدفاع عن كيان بلدهم، ومرة أخرى انتحلوا عذرا واهيا زاعمين أن بيوتهم عورة مكشوفة معرضة للخطر، عليهم أن يتولوا حراستها والدفاع عنها، علما أن الخطر لم يكن كامنا على بيوتهم بل على الجبهة التي وقف أمامها المسلمون، ولكن خسة الطبع زينت لهم هذا الغدر وسوغته فتركوا الميدان :هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (12) وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً] (13) الأحزاب: 11 - 13.[

ب- ويتكرر موقف التخاذل والنذالة والانسحاب في غزوة تبوك- غزوة العسرة- بعد أن يحاولوا تثبيط المسلمين عن الخروج للجهاد، وجهز رأسهم جيشا من المنافقين واليهود ينافس به جيش المسلمين، حتى كان يقال ليس عسكر ابن أبيّ بأقل العسكرين، ثم أعلن حرب الأعصاب حين قرر التخلف والانسحاب وهو يقول :يغزو محمد بني الأصفر- مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما لا قبل له به- يحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب، والله لكأني أنظر إلى أصحابه غدا مقرنين في الحبال.(2)

هذا ديدنهم في الشدائد وعند الاستعداد للمعارك، وهو أن يفروا من الميدان، ويبررون هزيمتهم هذه بأتفه الأعذار، وانظر إلى عذر أحدهم.(3)

هكذا نجد مواكبة القرآن الكريم لمسيرة الدعوة، وتوجيهها ورعايتها بإلقاء الضوء أمامها كلما اشتد الظلام وتفرقت السبل واختلط الأمر، وقويت وطأة التآمر من أعداء الله وراجت شائعاتهم، للنيل من وحدة المسلمين، وإلقاء الوهن في قلوبهم.

هذا هو الهدف الأساسي من ذكر هذا النوع من الغيب، ولكن هناك مقاصد أخرى تأتي تبعا، وقد نتوصل إليها كنتائج عند ما نتدبر النصوص التي كشفت النفاق والمنافقين وجميع أعداء الله.

فالنصوص التي استعرضنا قسما منها عرفتنا بحقيقة الأنفس التي بارزت الله والرسول بالعداء، لأن في ذكر خصال هذه الأنفس بتعرية النماذج الأولى منها في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكشف حقيقتهم تمكينا للمسلمين في شتى عصورهم وعلى اختلاف أمكنتهم وأزمنتهم من معرفة أعداء الله، والأساليب التي يلجئون إليها، فهذه النماذج تتكرر باستمرار، فما وجدت دعوة وقائمون عليها لا بد من وجود أعداء يعلنون ما في قلوبهم من غيظ وحنق، ومنافقين يلبسون لكل حالة لبوسها.

وهذا الكشف عن هذا الجانب الغيبي يجعل المؤمن حارسا لوساوس القلب مراقبا للمشاعر والأحاسيس. وفي ذلك إحياء للقلب وتصفية للنوايا من الشوائب والرغائب الدنيوية ليبقى المؤمن في أفق رفيع متألق من الإخلاص لله عزّ وجلّ.

نتلمس من ذلك كله أن تسديد مسيرة الدعوة وتربية الأمة وتهذيب لأنفس هو الغرض الأساس في غيب الحاضر. ويستدل تبعا لذلك أن ما نطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم من كشف الأمور ومجريات الأحداث- وهو لم يحضرها ولم يشاهدها- دليل على أنه وحي أوحي إليه من ربه وأنه رسول مؤيّد من الذي لا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض.

]المبحث الثالث غيب المستقبل[

ويقصد بغيب المستقبل ما ذكره القرآن الكريم من حوادث ستقع ولم تكن قد وقعت عند نزول الآيات التي تحدثت عن وقوع الحادثة.

ومن خلال استقراء الآيات التي تحدثت عن هذا النوع من الغيب يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أنواع:

أولا :ما تحدث القرآن عنه ووقع في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن ذلك:

أ- ما تحدث عن مصير بعض المكذبين وأنهم سيموتون على الكفر ويخلدون في النار، كما جاء في قوله تعالى :تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ (2) سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ] (5) المسد: 1 - 5.[

وقوله تعالى :ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً (12) وَبَنِينَ شُهُوداً (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ] (26) المدثر: 11 - 26.[

وقوله تعالى :أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى (9) عَبْداً إِذا صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى (12) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى (14) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ (15) ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ] (18) العلق: 9 - 18.[

وقوله تعالى :خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ (47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ (48) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49) إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ] (50) الدخان: 47 - 50.[

لقد حددت الآيات الكريمة مصير كل من أبي لهب والوليد بن المغيرة وأبي جهل في الدنيا والآخرة، فلو لم يكن القرآن تنزيلا من حكيم حميد الذي بيده الحياة والموت لما

صحّ ذلك في كل ما أخبر به، بل لما كان من عاقل من البشر أن يضع مصير دعوته على شيء معين، فلو آمن واحد من هؤلاء الثلاثة الذين دمغهم القرآن الكريم بالكفر، وخلد في الأشقياء ذكرهم، لانطفأت شعلة الإسلام، ولقامت الحجة على القرآن ومن جاء به، لو أسلم أبو لهب مثلا لما كان لقوله تعالى :سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ (3) منصرف ولا واقع، ولأصبحت هذه الآية في واد والواقع في واد آخر.

وكيف كان محمد صلى الله عليه وسلم يقابل الناس بها، وقد أصبح أبو لهب، من الصحابة كعمر بن الخطاب، وغيره من الذين كان لهم موقف معاد للإسلام قبل أن يدخلوا فيه، أفليست هذه معجزة قاهرة، وأي معجزة أبهر وأقهر من أمر لا يكلف صاحبه أكثر من كلمة يقولها بلسانه فيبطل بها قول محمد صلى الله عليه وسلم، ويفسد أمره جميعه، ثم لا يقول الكلمة، ولا تسمح له الحياة بأن يقولها فقد عاجلته المنية قبل يوم الفتح الذي دخلت فيه قريش كلها الإسلام فلو دخل هؤلاء لكان إسلامهم هدما للإسلام كله.

أفلا يدل هذا جليا أن القرآن من عند خالق الحياة والممات، والذي مصير كل شيء بيده، ومآل كل أمر إليه، وهو الذي حفظ دينه وكتابه.

ب -قوله تعالى :سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ] (45) القمر: 45.[

سورة القمر من السور المكية التي نزلت في المرحلة المتوسطة حيث كان أذى المشركين يزيد يوما بعد يوم على المؤمنين، فكانت الآيات الكريمة تنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم لتثبيت قلبه بذكر قصص الأنبياء والمرسلين وتبين أن العاقبة لهم وأن نصر الله آتيهم لا محالة، وأن مصير المعاندين هو لهزيمة والخزي والعار وكان المؤمنون ينتظرون يوم النصر والفرج إلى أن جاء ذلك يوم بدر، يوم الفرقان يوم أعز الله جنده وأخزى أعداءهم، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه كنت أقرأ قوله تعالى :سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) فأقول أي جمع هذا وأية هزيمة إلى أن كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع وهو يقول) :سيهزم الجمع ويولون الدبر(، فعرفت تأويلها يومئذ (1) وعند نزول الآية الكريمة ما كان أحد يتوقع أن تكون للمسلمين شوكة وجيش يواجهون به جموع المشركين. فكان أن تحققت النبوءة بعد سنوات عديدة في السنة الثانية من الهجرة النبوية.

ج -قوله تعالى :الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ] (4) الروم: 1 - 4.[

كانت الدولتان العظيمتان في ذلك الحين الفرس والروم. فحدث أن وقعت معركة بين الدولتين وانتصر الفرس على الروم وألحقت هزيمة نكراء بجيش الروم واقتطعت أراضي من بلاد الشام من الممالك الرومانية، وكانت دولة الفرس وثنية تعبد النار، وكانت دولة الروم نصرانية تدعي متابعتها للإنجيل، ففرح المشركون الوثنيون بانتصار الوثن على أهل الكتاب. تفاؤلا بانتصارهم على المسلمين أتباع القرآن. فلما نزلت الآيات الأولى من سورة الروم، سخر المشركون من هذا النبأ، لأن الهزيمة التي لحقت بالروم في مقاييس الأسباب الظاهرية أضخم من أن تزال آثارها في عشرات السنين، فضلا عن تحقيق النصر على العدو المناوئ في بضع سنين، ولكن الأمر لله من قبل ومن بعد، وما كان وعد الله ليتخلف، ولم تمض عشر سنين حتى دحرت الروم الفرس، في وقت فتح الله على رسوله فتحا مبينا، وفرح المسلمون بانتصارهم السياسي في غزوة الحديبية.

ثانيا :ما تحدث عنه القرآن الكريم ووقع بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أ -فمن ذلك قوله تعالى :قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ] الفتح: 16.[

فقد استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب من حول المدينة في غزوة الحديبية، وتخلف كثير منهم خوفا من بطش قريش وسطوتها، وقالوا ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية جاءوا يعتذرون إليه ويقولون :شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا] الفتح: 11.[

ففتح الله تعالى لهم باب التوبة بشرط الاستجابة لنداء الجهاد في قوله تعالى :قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ... ولم يدع هؤلاء الأعراب في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما استنفروا للجهاد بعد وفاته في عهد الخلفاء الراشدين.

ب -وفي قوله تعالى :وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا] النور: 55.[

وقد تحقق ذلك في عهد الخلفاء من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فدحروا دولة الفرس والروم ووصلت الفتوحات الإسلامية إلى أطراف الصين شرقا وإلى المحيط الأطلسي غربا، وخضعت الشعوب والأمم للإسلام ودخل كثير منهم في الإسلام طواعية وعم ضياؤه أرجاء المعمورة وسارت الظعينة من حضرموت إلى صنعاء لا تخشى إلا الله والذئب على غنمها، وكان الناس في أمن وأمان. وكان كل ذلك في العهود اللاحقة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ج -وفي قوله تعالى :إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ] (9) الحجر: 9[، نبوءة متجددة مستمرة، فقد تعاقبت أحداث بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأمة

الإسلامية لو نزلت بأي أمة من الأمم لاندثر تاريخها، ولطمست معالم ثقافتها، ولبادت حضارتها كما بادت حضارات كثيرة في تاريخ البشرية. إلا أننا نجد أن كتاب الله الذي تكفل الله بحفظه ، لم تنقطع سلسلة حفاظه الذين يتلقونه جيلا عن جيل من

الصدور. ونجد الأمة بعد كل كبوة تستعيد فتوتها، وتجدد نشاطها، لتقوم بدورها الحضاري مرة أخرى وما ذاك إلا بفضل كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتحقيقا لوعد الله الذي تكفل بحفظ كتابه :إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ.(9)

ثالثا :ما تحدث عنه القرآن الكريم ولم يقع إلى الآن، وسيقع حتما من غير ريب فمن ذلك ما ذكره القرآن عن أشراط الساعة والأحداث التي تقع قبيل قيامها وجاءت جملة منها في ثنايا الآيات الكريمة منها:

أ -في قوله تعالى *:وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ] (82) النمل: 82 .[وجاء ذكرها مجملا، فلا ندرك حقيقتها ولا مكان خروجها، ولا وقته المحدد، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فصّل القول في بعض أوصافها ومكان خروجها :فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم» :تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان، فتجلو وجه المؤمن بالخاتم، وتخطم أنف الكافر بالعصا حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر.(1) «

وأخرج الطيالسي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال :ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال: لها ثلاث خرجات من الدهر، فتخرج خرجة بأقصى اليمن، فينشر ذكرها بالبادية في أقصى البادية، ولا يدخل ذكرها القرية- يعني مكة- ثم تكمن زمانا طويلا ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك، فيعلو ذكرها في أهل البادية، ويدخل ذكرها القرية- يعني مكة -قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها، المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام، وتنفض عن رأسها التراب، فارفض الناس عنها شتى، وبقيت عصابة من المؤمنين، ثم عرفوا أنهم لن يعجزوا الله فبدأت بهم، فجلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدري، وولت في الأرض لا يدركها طالب، ولا ينجو منها هارب، حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول :يا فلان الآن تصلي؟، فيقبل عليها فتسمه في وجهه، ثم ينطلق، ويشترك الناس في الأموال، ويصطحبون في الأمصار، يعرف المؤمن من الكافر حتى إن المؤمن ليقول :يا كافر اقضني حقي، وحتى الكافر ليقول:

يا مؤمن اقضني حقي.(1)

ب -وفي قوله تعالى :حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ] (97) الأنبياء: 96 - 97.[

من علامات الساعة خروج يأجوج ومأجوج وإفسادهم في الأرض وسيطرتهم على العالم .ومن أخبارهم ما رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن النواس بن سمعان قال :ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع، حتى ظننا أنه في ناحية النخل فقال :غير الدجال أخوفني عليكم، فإن خرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن خرج ولست فيكم، فكل امرئ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب جعد قطط عينه طافئة، وإنه تخرج خيله بين الشام والعراق، فعاث يمينا وشمالا، يا عباد الله اثبتوا، قلنا يا رسول الله صلى الله وسلم :ما لبثه في الأرض؟ قال:

أربعون يوما، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة، وسائر الأيام كأيامكم، قلنا :يا رسول الله، فذلك اليوم الذي هو كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال :لا ... اقدروا له قدره، قلنا :يا رسول الله، ما أسرعه في

ج -نبوءة قرآنية نعايشها الآن:

جاء في قوله تعالى :وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً] (4) الإسراء: 4.[

ذهب كثير من المفسرين إلى أن العلو في الأرض والإفساد الأول قد تم فأرسل الله عليهم بختنصر ملك بابل فشردهم وقتل الكثير منهم وساق الكثير أسرى إلى بابل. أما العلو الآخر والإفساد الآخر فلم يأت بعد، حيث لم تقم لليهود بعد أسر بابل دولة ولا كيان.

وفي سورة الإسراء نفسها في أواخرها جاء قوله تعالى :وَقُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً (104) وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً] (105) الإسراء: 104 - 105.[

أي قيل لهم انتشروا في الأرض فإذا جاء وعد المرة الآخرة في العلو والإفساد في الأرض جئنا بكم من أطراف الأرض جماعات جماعات.

ونحن نرجح أن مرحلة العلو في الأرض بدأت من مؤتمر اليهود في بال بسويسرا عام 1897 م عند ما أعلن رئيسهم هرتزل عن وضع اللبنة الأولى لدولة إسرائيل، وقال إن الإعلان عن قيامها سيتم بعد خمسين عاما من ذاك التاريخ، وبالفعل أعلن قيام دولة إسرائيل عام 1948 م. وتسابقت الدول العظمى إلى الاعتراف بها. ومنذ مؤتمر سويسرا وإلى اليوم فإن السياسة العالمية مسخرة لتسهيل هجرة اليهود من أنحاء العالم إلى فلسطين، وكان قيام الحربين العالميتين والمستفيد الأكبر منهما هم اليهود، ففي الأولى أزيلت الدولة العثمانية الإسلامية من الوجود وكانت تقف سدا منيعا في وجه اليهود، وفي الثانية هيئت الأجواء الدولية للاعتراف بإسرائيل ودعمها ماديا ومعنويا، فالسنوات العشرون بعد الحرب العالمية الثانية كان اقتصاد ألمانيا موجها لدعم دولة إسرائيل تحت شعار التعويض عن جرائم النازية.

إن تجميع اليهود في فلسطين من سنن الله القدرية التي لن تتخلف.

لتأتي المرحلة اللاحقة، ويتوجه جند الإسلام لاجتثاث جذور الشر والإفساد وتقوم الدول النصرانية لمساندة اليهود وتقوم الملاحم الكبرى على أرض الشام، فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ ...) الحديث (1) وتستمر المعارك بين جند الإسلام وبين الروم أربع جولات، تكون الغلبة للمسلمين في الجولة الرابعة، بعد أن تلحق خسائر بشرية هائلة بالطرفين وبعد تمكن أعداء الله من هدم الكعبة المشرفة وتدمير الأقصى وإقامة الهيكل مكانه، تنطلق كتائب الإيمان إلى أرض فلسطين لاقتلاع جذور الشر بقيادة المهدي ويحين نزول عيسى عليه السلام، ويكون الدجال قد تزعم مملكة إسرائيل فينادي الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله إن ورائي يهوديا فتعال فاقتله.(2)

إننا نعيش بدايات علو بني إسرائيل للمرة الآخرة. كما إننا نتلمس بذور جند الإسلام في شباب الصحوة الإسلامية العارمة التي تنتشر في العالم الإسلامي اليوم، وإلى أن يأتي الوعد الحق، فإننا منتظرون، ولا يخلف الله الميعاد.

]وجه دلالة الغيب على مصدر القرآن[

إن حالة محمد صلى الله عليه وسلم عند إطلاق هذه الأنباء الموغلة في القدم، أو الحاضرة الخافية في صدور أهلها، أو الوعود المستقبلة التي كانت في مجاهل الغيب، كان حاله في كل ذلك حال الواثق المتيقن من الأمر، وهو بشر لم يطلع على كتب السابقين ولا يملك من تصرف أمور المستقبل شيئا، وكان هو بذاته ينفي عن نفسه علم الغيب :قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ] الأعراف: 188.[

فلو لم يكن مستندا إلى ركن قوي ما أطلق مثل هذا، وجازف بدعوته وهو الذي عرف عنه التعقل والحكمة ولم يعهد منه تسرع في أمر، أو تقول بلا روية، حتى قبل أن يكرمه الله بالرسالة.

فلا شك أن الوحي الإلهي كان ينطقه، كما أن الصدق المطلق الذي رافق القرآن الكريم من يوم نزوله إلى يوم انقطاع الوحي بالتحاق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، أمر يوجب التوقف والتدبر، إن الصدق في أخبار القرآن الكريم ظاهرة لا يستطيع إنكارها أحد، حتى الذين عادوا الإسلام، كان هؤلاء يضمرون في أنفسهم احترام صدق القرآن وحقيقته بالرغم من ركام الوثنية والشرك والتكذيب الذي لاقوه به، بل كان هذا الاحترام المنتزع منهم والمفروض عليهم ملازما لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان ينطق بالقرآن.

ولقد أدرك مشركو العرب هذه الحقيقة من خلال اختلاطهم برسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به، حيث صدقت الحوادث الكونية كثيرا مما أخبرهم به القرآن الكريم.

كما أدرك أهل الكتاب صدق القرآن فيما أخبرهم به من الحوادث الغابرة التي كانوا يعرفونها من بطون كتبهم، وكذلك أدركوا هذا الصدق المطلق من خلال كشف القرآن الكريم لمخططاتهم ومؤامراتهم على الإسلام وأهله.

إن هذه الأنباء الصادقة التي جاء بها القرآن الكريم لدليل ظاهر وبرهان قاهر على أنه كلام رب العالمين، الذي يستوي عنده علم السابق واللاحق، لا تخفى عليه خافية، لقد ظهر صدق القرآن الكريم لكل ذي عينين في عشرات الحوادث التي أخبر عن وقوعها في المستقبل ووقعت بالفعل كما أخبر، ولا زالت الأيام تكشف عن جوانب من هذه الأنباء، سواء في الكون أو الإنسان أو الحوادث الكونية العامة الشاملة.

إن ظاهرة الإخبار بالمغيبات في القرآن الكريم وتصديق الوقائع لها وعدم تخلف الصدق عنها ولو في جزئية بسيطة، لدليل على أنه وحي ممن خلق الأرض والسماوات العلى، أنزله على رسوله ليكون دلالة على صدقه.